ثقافة

في مديح الشيخوخة

ماركوس توليوس شيشرون

ترجمة: فتحي أبو رفيعة





الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

في مديح الشيخوخة

ماركوس توليوس شيشرون

ترجمة: فتحي أبو رفيعة

في مديح الشيخوخة

ترجمة: فتحي أبو رفيعة

الغُلاف: عبد الرحمن الصواف
التّصميم الداخلي: عصام حسني



في مديح الشيخوخة

ماركوس توليوس شيشرون

ترجمة: فتحي ابو رفيعة

منشورات بتانة
الطبعة الاولي
2017

فهرس

مقدّمة المترجم

يتضمّـن هـذا الكتـاب ترجمـة لكتـاب المفكّـر والخطيـب الرومـاني الأشـهر ماركـوس توليـوس شـيشرون How To Grow Old ، الـذي صـدر مؤخّـرًا عـن جامعـة برنسـتون بالولايـات المتحـدة. وكان شـيشرون قـد وضـع هـذه الأطروحـة أوّلَ مـا وضعهـا في عـام ٤٤ قبـل الميـلاد تحـت عنـوانDe Senectute أو «عـن الشـيخوخة»، والتـي آثـرتُ ترجمتهـا إلى العربيـة تحـت عنـوان «في مديـح الشـيخوخة» اسـتنادًا إلى مـا تتضمّنـه الأطروحـة مـن أفـكار.

ويعـود اهتمامـي بأطروحـة شـيشرون إلى أوائـل السـتينات مـن القـرن المـاضي حينــما كنـت أدرس اللغـة اللاتينيـة بجامعـة الإسـكندرية، وكان يدرّسـها لنـا أسـتاذ فاضـل هـو الدكتـور محمـد محمـود السـلاموني. ولا تـزال ذاكـرتي تحمـل صـور الدكتـور السـلاموني وهـو يـشرح لنـا بعـض تعابـير شـيشرون عـن الشـيخوخة، وكيـف أن المـوت في الصبـا أشـبه بانتـزاع ثمـرة مـن شـجرتها قبـل نضوجهـا، عـلى عكـس الوفـاة في سـن الشـيخوخة، حيـث تسـقط الثـمار مـن نفسـها بعـد نضوجهـا.

وغنـي عـن القـول أنـه لا ينبغـي أن يغيـب عـن بـال المطالـع للأفـكار التـي تتضمّنهـا هـذه الأطروحـة الوقـت الـذي صيغـت فيـه في القـرن الأول قبـل الميـلاد. وتتضمّـن الترجمـة الإنجليزيـة مقدّمـةً وافيـة للبروفسـور فيليـب فريمـان، وهـي مدرجـة بكاملهـا في النـص العـربي.

ولعلـه مـن المناسـب في هـذا المقـام إلقـاء الضـوء على أهمية شـيشرون

وأفكاره وأطروحاته الفلسفية التي سبق بها عصره، حتى يكاد المرء أن يطالع فيها أفكار العديد من فطاحل الفلسفة الغربية من أمثال ديكارت وميشيل فوكو، وإن تباينت تباينًا شديدًا الظروفُ والوقتُ الذي عبَّر فيه كلٌّ من هؤلاء المفكِّرين عن هذه الأفكار.

في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩، نشرت سلسلة عالم المعرفة، التي تصدر في الكويت، دراسة مهمَّة لعالم جليل يُعْتَدُّ برأيه في هذا الشأن، وهو الدكتور أحمد عتمان، الذي كان، رحمه الله (حيث توفي في عام ٢٠١٣)، حجَّةً في الدراسات اليونانية واللاتينية والأدب المقارن، تحت عنوان «الأدب اللاتيني ودوره الحضاري». وأفرد الراحل العظيم في هذه الدراسة فصلًا عن شيشرون تحت عنوان «شيشرون صانع عصره الأدبي»، قدم فيه فيضًا من المعلومات عن المفكِّر الروماني الأشهر، الذي وُلد في شهر يناير عام ١٠٦ ق. م. لأب من طبقة الفرسان ميسور الحال، ومعروف في مدينة أربينوم الإقليمية. وكان والد شيشرون ذكيًا وطَموحًا؛ ممَّا جعله يحرص على أن يعلِّم ولدَيْه ماركوس وكيونتيوس تعليمًا ممتازًا في الفلسفة والخطابة، فأرسلهما إلى روما ثم إلى بلاد الإغريق مع ابنَيْ عمهما وزميلهما في الدراسة. وتشير دراسة الدكتور عتمان إلى أن أبا شيشرون عاش ليرى بواكير صعود نجم ابنه ماركوس في عالم السياسة والأدب؛ إذ مات إبَّان حملة شيشرون الانتخابية لتقلُّد منصب القنصلية عام ٦٣ ق. م.، وأدى شيشرون الخدمة العسكرية عام ٨٩/٩٠ تحت قيادة والد بومبي الأكبر.

وعندما كان شيشرون في الثامنة عشرة من عمره، حدث أن زار روما

أحد الفلاسفة الكبار، وهو فيلو (Philo) من لاريسا، الذي كان رئيسًا للأكاديمية الأفلاطونية الجديدة في أثينا. وقد لازم تأثير هذا الفيلسوف شيشرون طول حياته. ويشير الدكتور عتمان إلى أن فيلو تمتّع بميزة قلّما نجدها في فيلسوف أو خطيب؛ ألا وهي حسن الاستماع، فهو يقف إلى جوار محدِّثه منصتًا إلى كل كبيرة وصغيرة قبل أن يشرع في الحوار معه. ويؤمن فيلو بأنه لا توجد قط معرفة يقينية، ولذا فهو يُدين التعصُّبَ للرأي. ويضيف الدكتور عتمان إن ذلك يوضِّح السبب في أن شيشرون اختار أن يدرس في الأكاديمية حينما ذهب إلى أثينا، ولكن رئيسها حينئذ لم يكن فيلو، لكنه كان أنطيوخوس العسقلاني (المولود فيما بين ١٣٠ و ٢١ ق. م.).

وعاد شيشرون من رحلته الدراسية الإغريقية موفور الصحة وشديد الحماس لممارسة مهمات المناصب السياسية العامة. فانتخب في عام ٧٥ ق. م. حاكمًا ماليًّا (وهو من المناصب الحكومية الهامة التي يطلق عليها اسم كوايستور (Quaestor)، وقضى نحو عام في غرب صقلية حيث فاز بثقة الصِّقِلِّيين واكتسب مزيدًا من الثقافة.

وفي عام ٦٦ ق. م. اختير شيشرون حاكمًا قضائيًّا (برايتور). ومن الجدير بالذكر أنه شغل هذا المنصب (وقبله منصب الكوايستور) وهو في أصغر سن يسمح بها القانون؛ أي في بداية السن القانونية، وهذا ما كان شيشرون يفخر به دائمًا.

ومن المؤكد أن شيشرون واجه مقاومة شديدة من قبل الأرستقراطيين والنبلاء وهو يشق طريقه في معترك السياسة. ربما

أعجبوا بثقافته الواسعة وفصاحته المؤثِّرة، ولكنه لم يكن برأيهم ممن يستحقُّون أن ينضمَّ إليهم أو يشاركهم لعبة السياسة. وزادت هذه المقاومةُ شيشرونَ عنادًا وتصميمًا.

وفي حياة شيشرون الخاصة وقعت أمور كثيرة، فقد فترت علاقته منذ زمن بزوجته الطموح تيرينتيا، فانفصل عنها في عام ٤٦ ق. م. وتزوَّج فتاة صغيرة هي بوبليليا، التي كانت وريثة ثريَّة ربما طمع شيشرون بزواجه منها في تسديد ديونه لقيصر آنذاك. وفي فبراير عام ٤٥ ق. م. ماتت ابنته توليا بعد طلاقها من زوجها. وشكَّلت وفاتها ضربة قاصمة لظهر شيشرون، عبَّر عنها بقوله إن القدر نجح في أن يسحقه سحقًا، وصار يتنقل بين بيوته الريفية ومزارعه مهملًا زوجته الشابّة؛ ممَّا أدى في النهاية إلى الطلاق. ووجد شيشرون ضالَّته في الكتابة الفلسفية، فأنتج في العامين ٤٥ و ٤٤ ق. م. عددًا مهمًّا من الأطروحات؛ من بينها أطروحته الحالية عن الشيخوخة، وأطروحات أخرى.

ومن المعلومات الأخرى المتوافرة عن شيشرون أن الكنيسة الكاثوليكية المبكرة أنعمت عليه بلقب «الوثني الصالح»، واعتبرت أن العديد من أعماله يستحق الحفاظ عليه كتراث للإنسانية.

ويطرح البعض حجَّةً مؤدَّاها أنه لم يوجد أحد قبل شيشرون أو بعده أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلامة فاتنة، وقوة عاطفية وجمال. واعتبروا أن خُطَبَه كانت أسمى ما وصل إليه النثر اللاتيني، وقد كتب إليه أحد القياصرة إهداءً جاء فيه: «لقد كشفتَ كل كنوز الخطابة، وكنتَ أنتَ أوَّلَ من استخدمها، وبذلك

كانـت لـك اليـد الطـولى عـلى جميـع الرومـان، وكنـتَ مفخـرةَ وطنِـك؛ لقـد نلـت نـصرًا دونـه نـصرُ أعظـمِ القـوَّاد؛ لأن الذهـن البـشري أنبـل مـن توسـيع رقعـة الإمبراطوريـة الرومانيـة».

ولـئن كان البعـض قـد اتُّهـم شـيشرون بالغـرور؛ فإنـه يقـول عن نفسـه: «إن تقديـري لنفـسي وثنـائي عليهـا أعظـم الأشـياء قـدرًا عنـدي، وإذا كان في النـاس مـن لا يتصـف بالغـرور فهـو أنـا».

ويُجمـع مـن أرَّخـوا لحيـاة شـيشرون مـن خـلال رسـائله عـلى أنـه كان إنسـانًا محبوبًـا، ويمكـن وصفـه بأنـه كان عامـلًا مُجِـدًّا، وأبًـا رحيـمًا، وصديقًـا وفيًـا، وهـو في بيتـه مولـع بكتبـه وبأبنائـه، يحاول أن يحـب زوجه تيرينتيـا الغضـوب التـي لم تكـن تقـل عنـه ثـروة أو فصاحـة، وإن كانـت مشـاحناتهما قـد انتهـت بالطـلاق. ولم يلبـث بعـد أن طلَّقهـا أن تـزوَّج بوبليليـا الأصغـر منـه سـنًّا، والتـي لم تُظهـر وُدًّا لابنتـه تولليـا، فطلَّقهـا هـي الأخـرى. وكان يحـب تولليـا أشـد الحـب، فلـمّا ماتـت حـزن عليهـا حزنًـا كاد يذهـب بعقلـه، وأراد أن يشـيِّد لهـا معبـدًا كمعابـد الآلهـة.

وبينـما كانـت بـلاد الرومـان تمـرّ بتلـك الأيـام العصيبـة حـين عـبر قيـصر نهـر الروبيكـون وهـزم بومبـي، ونصَّـب نفسـه حاكـمًا بأمـره؛ اعتـزل شـيشرون الحيـاة العامـة إلى حـين، وأخـذ ينشـد الراحـة مـن عنائهـا في قـراءة الفلسـفة والكتابـة فيهـا. وقـد عمـل وقتئـذ بمـا كان ينصـح بـه غـيره، وأصـدر في فـترة لا تزيـد إلا قليـلًا عـلى سـنتين مـا يـكاد يكـون مكتبـة في الفلسـفة. ذلـك أن ضعـف العقيـدة الدينيـة لـدى الطبقـات العليـا قـد خلَّـف وراءه فراغًـا أخلاقيًـا لاح معـه أن رومـا تـتردَّى في مهـاوي الانحـلال الخلقـي والاجتماعـي.

وكان شيشرون يأمل أن تحلَّ الفلسفة محلَّ الدين فتهدي هذه الطبقات إلى الحياة الطيبة، وتحفِّزها على أن تحيا هذه الحياة، ولم يكن يعتزم أن يضيف إلى النظم الفلسفية السابقة نظامًا جديدًا، بل كان كل ما يهدف إليه هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم في حياته. وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقرَّ في غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetiue وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحدثين، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفًا جديدًا؛ بل إنه في بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل. ولكنه قد حوَّل نثر هؤلاء الفلاسفة الجاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة، واضحة، جذابة، وجمَّل بحوثه بالحوار. وكان ينتقل فيها تنقلًا سريعًا من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجدباء، إلى المشاكل الحية؛ مشاكل السلوك وحكم البلاد. وقد اضطر -كما اضطر لوكريشيوس- إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة، ونجح في هذا نجاحًا جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كلتيهما.

ويرى البعض أن النقطة التي بدأ منها شيشرون فلسفته هي بعينها نقطة البداية التي انطلقت منها فلسفة الأكاديمية الجديدة The New Academy؛ أي التشكك الهين الذي لا يعترف بأن شيئًا ما مؤكَّدًا كلَّ التأكيد، والذي يرى في الاحتمالات الراجحة ما يكفي مطالب الحياة البشرية؛ وفي ذلك يقول في بعض كتاباته: «إن فلسفتي في معظم الحالات هي فلسفة الشك».

وخلاصة القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقًا جديدًا، فوسّع نطاق مفرداتها، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة، وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوربا الغربية سبعة عشر قرنًا من الزمان.

وفي الآونة الأخيرة ازداد اهتمام الجامعات الغربية والأمريكية بإعادة ترجمة أعمال شيشرون، ومنها جامعة برنستون بالولايات المتحدة التي نشرت عام ٢٠١٦ ترجمة جديدة لأطروحة شيشرون عن الشيخوخة التي نورد ترجمتها في هذا الكتاب. كما أعادت سلسلة كتب بنجوين ترجمة العديد من أعمال شيشرون مزوَّدة بمقدمات مستفيضة من إعداد كبار أساتذة الدراسات القديمة في الجامعات الغربية والأمريكية. وأشير في هذا الصدد، بالذات، إلى مقدمة مهمة لإحدى الترجمات التي نشرتها مؤخرًا دار نشر بنجوين لأطروحة شيشرون التي تحمل عنوان «عن الحياة والموت»، وتحمل هذه المقدمة عنوان «أهمية فلسفة شيشرون» وهي من تأليف البروفسور توماس هابنك، رئيس قسم الدراسات القديمة بجامعة جنوب كاليفورنيا.

وأهم النقاط التي يبرزها هابنك في هذه المقدمة هي كالتالي:

أن شيشرون ألَّفَ أطروحاته الفلسفية خلال فترات حياته التي بدا فيها أن مشاركته في العمل السياسي كانت تتَّسم بالخطورة أو غير أخلاقية أو مستحيلة. وقد غلب على هذه الأطروحات الطابع المتسرع والمشوش أحيانًا، ورغم ما لها من قيمة أدبية فإنها تفتقر إلى الأسلوب الأخّاذ الذي اصطبغت به أفضل خطبه.

ومـع ذلـك، فـلأن هـذه الأطروحـات الفلسـفية تصـدر عـن سياقات سياسـية واجتماعيـة؛ فـإن أثرهـا ظـل باقيًـا عـلى أجيـال متعاقبـة مـن القـراء.

أن شـيشرون أصبـح يمثِّـل النمـوذج المضـادَّ لفيلسـوف الـبرج العاجـي، وبـدون أن يتخـلَّى عـن التعقيـدات التـي تتَّسـم بهـا القضايـا الفلسـفية التـي يطرحهـا أو أن يعـبِّر عنهـا في صياغـات مبتذلـة وعاديـة؛ فإنـه ينقـل إلى القـارئ الإحسـاس بـأن هنـاك أجوبـة عـلى كل قضايـا الحيـاة الأساسـية، وعـن معنـى الوجـود وغايتـه، وعـلى كل الأسـئلة الكونيـة، وعـن خشـية البـشر مـن مواجهـة المـوت أو الـشر. ولـئن كانـت الأجوبـة التـي يطرحها شـيشرون عـلى هـذه الأسـئلة هـي أجوبـة تجريبيـة أو مؤقتـة وقابلـة للاسـتعراض والمراجعـة، كـما يـصرُّ هـو عـلى ذلـك شـخصيًّا؛ إلا أنهـا إجابات فارقـة بالنسـبة إليـه وإلى الآخريـن عـلى مـر التاريـخ.

أن جوهـر الفلسـفة الشـيشرونية يتمثـل في إحسـاس بالدهشـة إزاء الترابـط القائـم بـين جميـع بنـي البـشر والكـون الـذي يجمعهـم. ومنـذ بواكـير الأطروحـات الشـيشرونية عـن أسـاليب الحكـم في الجمهوريـة الرومانيـة حتـى مقالـه الأخـير عـن الواجبات، فإنـه لم يتحدث عن السـعادة الشـخصية بقـدر مـا تحـدث عـن العلاقـة بـين الداخـلي والخارجـي، بـين الواحـد والمجمـوع، والآني والخالـد.

يسـتمد شـيشرون مبادئـه التوجيهيـة الفلسـفية ليـس مـن خـلال اسـتنباط المبـادئ الأوليـة المجـرَّدة ولكـن مـن خـلال ملاحظـة العالم حولـه؛ عالمـه الخـاص وعـالم سـابقيه ومحاوريـه. ولهـذا؛ فإنـه يطـرح مبادئـه

الفلسـفية في شـكل مبـادلات حواريـة مـع شـخصيات تاريخيـة، مرتكـزاً بقـوة إلى حجـج سـابقيه مـن المفكريـن.

أن المحصلـة النهائيـة التـي يمكـن اسـتخلاصها مـن التجربـة الفلسـفية الشـيشرونية هــي أن الفكـر، بـكل أنواعـه، والفلسـفة، بـكل أنواعهـا، يخضعـان بالتحديـد للاعتبـارات التاريخيـة. وككل المفكريـن عـلى مـرٍّ التاريـخ، فإنـه كان نتـاج عـصره. ولـئن كانـت كتاباتـه قـد غضَّـت الطـرف عـن الكثـير مـن الموبقـات التـي ابتـلي بهـا عـصره؛ مـن قبيـل الـرق والاسـتعمار ومختلـف أنـواع الاسـتغلال، تظـلُّ حقيقـة الأمـر أن مـا سـطَّره شـيشرون ومـا صنعـه أحدثـا فرقًـا كبـيراً في حيـاة العديـد مـن الأفـراد والمجتمعـات، ربمـا حتـى يومنـا هـذا.

فتحي أبو رفيعة

نيويورك، مايو (أيار) ٢٠١٧

مقدمة

بقلم : فيليب فريمان

لم يكـن عـام ٤٥ قبـل الميـلاد عامًـا سـعيدًا بالنسـبة إلى ماركـوس توليـوس شـيشرون. فقـد كان الخطيـب الأشـهر ورجـل الدولـة المرمـوق في رومـا في أوائـل العقـد السـابع مـن عمـره، وكان وحيـدًا بعـد أن انفصـل منـذ بضعـة أعـوام عـن زوجتـه ذات الثلاثـين ربيعًـا، وتـزوج زوجـة أصغـر سـنًا، مـا لبـث أن طلَّقهـا عـلى الفـور. وفي مطلـع هـذا العـام، توفيـت ابنتـه المحبوبـة تولليا؛ مـا دفعـه إلى حالـة مـن اليـأس والقنـوط. وكان قـد فقـد مكانتـه في طليعـة رجـال السياسـة الرومـان قبـل ذلـك بأربـع سـنوات حينـما عـبر يوليـوس قيـصر نهـر روبيكـون وأرغـم الجمهوريـة الرومانيـة عـلى الدخـول في حـرب أهليـة. ولم يكـن بوسـع شـيشرون أن يؤيِّـد القيـصر، وبالتـالي، فبعـد أن وقـف في البدايـة في مواجهـة الدكتاتـور الجديـد وحصـل في نهايـة المطـاف عـلى عفـو عـام أشـعره بالمهانـة؛ انسـحب إلى ضيعتـه الريفيـة، وظـلّ هنـاك بعيـدًا عـن رومـا كرجـل وحيـد يعيـش حياتـه وأفـكاره دونمـا أي نفـع يقدمـه للعـالم.

ولكـن شـيشرون، بـدلًا عـن أن يسـتهويه الإفـراط في الـشراب والإقـدام عـلى الانتحـار كـما فعـل صديقـه كاتـو الأصغـر؛ فضَّـل التحـوُّل إلى الكتابـة. فقـد كان في شـبابه طالبًـا نجيبًـا في الفلسـفة اليونانيـة وتمنَّـى أن يكـون لـه دور بـارز في عـالم الأدب عـبر قيامـه بـشرح أفـكار كبـار المفكريـن الإغريـق مـن أمثـل أفلاطـون وأرسـطو وغيرهـم لبنـي وطنـه. وكان شـيشرون بطبعـه ميَّالًا للمعتقـدات الرواقيـة المتعلقـة بالفضيلـة والنظـام والعنايـة

الإلهيـة في مواجهـة مـا اعتـبره أفـكارًا محـدودة وتقـوم عـلى الانغـماس في الشـهوات والملـذات كتلـك التـي أخـذ بهـا الأبيقوريـون. ومـن هنـا فقـد شرع في الكتابـة. وفي خـلال وقـت قصـير للغايـة، ومـن خـلال العمـل منـذ الصبـاح الباكـر حتـى أواخـر الليـل، أنجـز الكثـير مـن الأطروحـات حـول موضوعـات تتعلّـق بالحكـم والأخـلاق والتعليـم والديـن والصداقـة والواجبـات الأخلاقيـة.

وقبـل اغتيـال يوليـوس قيـصر في منتصـف آذار/مـارس مـن عـام ٤٤ قبـل الميـلاد، تحـوّل اهتـمام شـيشرون إلى موضـوع الشـيخوخة وكتـب أطروحـة قصـيرة بعنـوان «عـن الشـيخوخة»، أو De Senectute. ولـئن كانـت أعـمار البـشر في العـالم القديـم، كـما هـو الحـال في العـالم الحديـث، يمكـن أن تكـون قصـيرة؛ فإننـا نحيـد عـن الصـواب لـو افترضنـا أن المعدّلات العمريـة في اليونـان أو رومـا كانـت قصـيرة بالـضرورة. وعـلى الرغـم مـن أنـه مـن العسـير قيـاس معـدلات العمـر في العصـور القديمـة كـما أن معـدلات وفيـات الأطفـال والرضّـع كانـت بالتأكيـد عاليـة؛ فـإن الرجـال والنسـاء لـو بلغـوا سـن الرشـد فإنهـم يحظـون بفرصـة طيبـة لأن يبقـوا عـلى قيـد الحيـاة إلى عمـر السـتين أو السـبعين، أو حتـى بعـد ذلـك.

وقـد تنـاول المؤلّفـون اليونـانُ قبـل شـيشرون موضوعـاتٍ تتعلـق بالحقبـة الأخـيرة مـن العمـر بأشـكال كثـيرة. ونسـب بعضهـم إلى المسـنين صفـات مثاليـة باعتبارهـم مـن رواد الحكمـة المسـتنيرين كـما فعـل هومـيروس مـع الملـك نسـتور، في حـين تعـرّض آخـرون لهـم بالاسـتهزاء والسـخرية فصوّروهـم عـلى نحـو كاريكاتـوري بأنهـم أشـخاص مُنْهَكـو

القـوى ودائمـو الشـكوى. وربمـا كانـت الشـاعرة سـافو التـي عاشـت في القـرن السـادس قبـل الميـلاد مـن أبـرز المؤلفـين الأقدمـين الذيـن كتبـوا حـول هـذا الموضـوع؛ حيـث رثـت شـبابها الضائـع في إحـدى قصائدهـا التـي جـرى اكتشـافها مؤخـرًا، حيـث تقـول:

«... هـا هـي بـشرتي التـي كانـت ناعمـة في مـا مـضى تعلوهـا التجاعيـد،

... وها هو شعري الفاحم كساه الشيب.

وأصبح قلبي مثقلًا بالأحزان، ولم تعد ركبتاي بقادرتين على حملي.

ولطالما يفجعني ضياع تلك الأشياء - ولكن ما حيلتي؟

فليس بمقدور أي من البشر أن يهرب من الشيخوخة».

عـلى أن شـيشرون، في مسـعى منـه للنـأي بنفسـه عـن الاستسـلام للشـيخوخة، حـاول أن يقـدم عنهـا صـورة أشـمل. ولـئن كان قـد اعـترف بمـا تنطـوي عليـه سـنوات العمـر الأخـيرة مـن أوجـه القصـور، فقـد قـال إنـه يمكـن التعامـل معهـا كفرصـة للنـماء والاكتـمال في ختـام حيـاة سـعيدة. واختـار شـيشرون للتحـدث بالنيابـة عنـه في حـواره الخيـالي كاتـو الأصغـر، وهـو قائـد رومـاني كان يعيـش في القـرن المنـصرم وكان يُكـنُّ لـه إعجابًـا عظيـمًا. وفي حـواره القصـير مـع اثنـين مـن أصدقائـه الأصغـر سـنًّا، يبـيّن كاتـو كيـف يمكـن للشـيخوخة أن تصبـح أفضـل مراحـل الحياة بالنسـبة إلى الأشـخاص الذيـن يعيشـون حياتهـم بحكمـة. ويدحـض كاتـو الاعتراضـات التـي يبديهـا نقـاد كثـيرون بـأن الشـيخوخة هـي وقـت للخمـول والمـرض والافتقـاد إلى الملـذّات الحسـية، وأنهـا تكـون مصحوبـة بالخـوف المقْعِد من

اقتراب الموت. وعلى الرغم من أن شيشرون يوجِّه عبارات الاستهزاء والسخرية إلى كبار السن أمثاله بجعل كاتو يخرج عن سياق الحديث إلى موضوعات غير ذات صلة (من قبيل خطابه المستفيض عن أمور الزراعة)؛ إلا أنه مع ذلك يؤكد على أن الشيخوخة هي فترة من فترات الحياة التي لا ينبغي أن تكون محفوفة بالمخاوف ويتعين الاستمتاع بها على أكمل وجه.

وهناك دروس قيّمة كثيرة يمكن استخلاصها من كتاب شيشرون عن الشيخوخة. وفي ما يلي بعض أهم هذه الدروس:

١ - الشيخوخة الجيّدة تبدأ في مرحلة الشباب - يقول شيشرون إن الخصائص التي تجعل سنوات العمر الأخيرة سنوات سعيدة ومنتجة ينبغي غرسها منذ البداية. فعادات من قبيل الاعتدال والحكمة وصفاء الذهن والتمتّع بكل ما تقدمه الحياة من مُتَعٍ هي جميعها أمور ينبغي أن يتعلّمها المرء في شبابه لأنها ستستمر معه وهو يتقدم في العمر. ولا يمكن للشباب التعيس أن يكون أكثر سعادة وهو يتقدَّم في السن.

٢ - يمكن للشيخوخة أن تصبح جزءًا رائعًا من العمر - يمكن لسنوات العمر المتقدمة أن تكون بالغة الاستمتاع إذا طوَّرنا لها الموارد الداخلية السليمة. ولئن كان هناك الكثير من المسنّين الذين يفتقدون السعادة؛ إلا أنه لا ينبغي لهم أن يلقوا باللائمة على شيخوختهم جرّاء ما يواجهونه من مشاكل. ويقول شيشرون إن أخطاءهم هي نتاج لضعف شخصيتهم وليس لعدد ما عاشوه من سنوات العمر.

٣ - للحياة فصولها المناسبة - شكّلت الطبيعة حياة البشر بما يمكّنهم من الاستمتاع بأشياء معينة خلال مرحلة الشباب وبأشياء أخرى حينما يكبرون. ولا جدوى من أي محاولة للتمسُّك بمرحلة الشباب بعد أن ينقضي أوانها المناسب. فإن أنت قاومت الطبيعة؛ كان نصيبك الخسران.

٤ - كبار السن لديهم الكثير مما يلقّنونه للشباب - هناك حكمة أصيلة في الحياة لا يمكن اكتسابها إلا عن طريق الخبرة. وهي تتعلّق بما نشعر به من لذة وما يقع علينا من واجب في الحياة ونحن نكبر، تتمثّل في أن ننقلها إلى الشباب الذي يصغرنا ويريد أن ينصت إلينا. ولكن الشباب أيضًا يمكنهم تقديم الكثير إلى من يكبرونهم، بما في ذلك اللذة التي ترافق صحبتهم المفعمة بالحياة.

٥ - لا تنكر علينا الشيخوخة أن نتمتّع بحياة ناشطة، لكن علينا أن نقبل بما تنطوي عليه من أوجه قصور - لن يفوز مسنٌّ في الثمانين من عمره في سباق للمشي على شباب ما زالوا في العشرين من عمرهم، لكن بإمكاننا أن نظل ناشطين بدنيًا في حدود القيود المتواضعة التي تفرضها علينا أجسامنا. وهناك أعداد غفيرة من كبار السن الذين يمكنهم القيام بأعمال لا تتطلب منهم قوّة بدنية عظيمة، بدءًا من الدراسة والكتابة، ووصولًا إلى توفير حكمتهم وخبرتهم إلى مجتمعاتهم المحلية.

٦ - العقل عضلة يجب مرانها - جعل شيشرون الشخصية الرئيسية في كتابه يدرس الأدب الإغريقيّ في سنوات عمره الأخيرة، وجعله يتذكر

بدقة ما مرّ عليه من أحداث في اليوم السابق قبل أن يأوي إلى فراشه كل ليلة. وأيًا كانت الأساليب المستخدمة، لا بُدّ لنا من استخدام عقولنا كلّما أمكن ونحن نتقدّم في العمر.

٧ - على كبار السن أن يدافعوا عن أنفسهم - أو كما يقول شيشرون: «لا تُحترم الشيخوخة إلا إذا احترمت نفسها، وحافظت على حقوقها، ولم تستسلم لأحد، وذادت عن حوضها حتى النفس الأخير». ولا ينبغي لسنوات العمر الأخيرة أن تكون وقتًا للخمول.

٨ - المغالاة في تقدير الجنس - ليس لأن كبار السن لا يمكنهم الاستمتاع بملذّات الجسد، ولكن لأن الأهواء الجنسية الطاغية التي تراود الشباب تخبو حدّتها مع تقدُّم العمر، وهذا فضل كبير من وجهة نظر شيشرون؛ ذلك أن تضاؤل الشهوات الحسّيّة يمنحنا فرصة للاستمتاع بجوانب أخرى من الحياة أكثر إشباعًا واستمرارًا.

٩ - ازرع حديقتك بنفسك - يطرح شيشرون هذه الفكرة في الفصل الذي يمتدح فيه مباهج الزراعة، على أن هناك درسًا مهمًا يتعيّن استخلاصه في هذا المقام؛ ألا وهو أن تحقيق السعادة يقتضي إيجاد مجال للنشاط جدير بالاهتمام به في سنوات الشيخوخة يمكن أن يوفر لنا متعة حقيقية. ولئن كنت لا تستمتع بنثر السماد أو تقليم كروم الأعناب، ولكن عليك أن تستمتع بما هو لك، أيًا كانت طبيعته.

١٠ - يجب ألا يخيفنا الموت - يقول شيشرون إن الموت يمثل أحد أمرين: إما نهاية للوعي البشري أو بداية لنعمة أبدية. وسواء أكان ذلك حقيقيًا أم لا، فمن المؤكد، وفقًا لشيشرون، أن الحياة هي أشبه

بمسرحيـة. ويـدرك الممثـل الجيـد متـى يـترك المـسرح. والتمسـك اليائـس بالحيـاة بعـد انقضائهـا ودنوّهـا مـن نهايتهـا هـو أمـر عقيـم ويتسـم بالحمـق.

لقـد كان هـذا الكتـاب الصغـير لشـيشرون عـن الشـيخوخة مصـدر استمتاع وإلهـام كبيرَيْـن للقـرّاء كافـة منـذ القرون الوسـطى وحتـى أزمنتنا المعـاصرة. وقـال عنـه رائـد المقـال الفرنـسي مونتـين إنـه أثـار شـهيته لبلـوغ سـن الشـيخوخة. في حـين قـال جـون آدامـز، وهـو مـن الآبـاء المؤسِّسـين للولايـات المتحـدة الأمريكيـة، إنـه اسـتمتع بإعـادة قـراءة هـذا الحـوار مـرّات عديـدة في سـنوات عمـره الأخـيرة. وقـال بنيامـين فرانكلـين إن الكتـاب بهـره إلى الحـد الـذي جعلـه يأمـر بطباعـة ترجمتـه في فيلاديلفيـا في عـام ١٧٤٤، وكان بذلـك مـن أقـدم الكتـب الكلاسـيكية التـي تنـشر في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وعـالم اليـوم المفتـون بالسـعي إلى الحفـاظ عـلى الشـباب يحتـاج إلى حكمـة شـيشرون أكـثر مـن أي وقـت مـضى.

* * *

في مديح الشيخوخة

الإهداء: إلى صديقي أتيكوس

١ - أوّاه يا تيتوس، لكم أتمنى أن يكون بوسعي أن أساعدك، أن أخفف عنك الأعباء التي تثقل صدرك وتجعلك كمن يتقلّب على الجمر، فماذا ستكون جائزتي؟[١]

وهكذا، يا أتيكوس، هل لي أن أخاطبك بنفس العبارات التي تفوّه بها ذلك الرجل قليل الثروة، لكنه ثري الولاء، وهو يتحدث إلى فلامينينوس؛ رغم يقيني بأنك لا تشبه فلامينينوس الذي كان، يا صديقي تيتوس، يضنيه القلق ليل نهار.

أعلم أنك من الرجال الذين يتوخّون الاعتدال واتّزانَ المزاج، وأنك جلبت معك من أثينا ما هو أكثر من مجرد اسم[٢]. فقد عدت أيضا مصحوبًا بعقل مثقف وواعٍ. ومع ذلك، تراودني الشكوك بأنك قلق إزاء ذات الأحداث السياسية التي نمر بها والتي تشعرني بكثير من القلق. ولكنَّ التماسَ الراحة بشأن هذه الأمور هو أمر بالغ الصعوبة الآن، وسوف نؤجِّل الحديث فيه إلى وقت آخر.

٢ - وعوضًا عن ذلك، فإنني أود أن أكتب لك حول موضوع التقدُّم في العمر. فهذا الموضوع يشكِّل عبئًا مشتركًا يشعر به كلانا -أو إنه

(١) يورد شيشرون هنا وفي السطور التالية اقتباسًا من الحوليات Annals، التي تتضمَّن التاريخ الملحمي لروما الذي كتبه الشاعر اللاتيني إنيوس، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد. والسطور التي كتبها إنيوس موجَّهة إلى الجنرال الروماني فلامينينوس، الذي حارب ضد فيليب الخامس ملك مقدونيا في عام ١٩٧ قبل الميلاد. ويلعب شيشرون على الاسم الأول من أسماء الجنرال تيتوس كوينكتيوس فلامينينوس وصديق شيشرون الذي كان يُدعى تيتوس بومبونيوس أتيكوس، الذي يهدي إليه هذا العمل.

(٢) أضاف صديق شيشرون اللقب أتيكوس إلى اسمه تيمُّنًا بأتيكا، المنطقة المحيطة بموطنه المحبوب أثينا.

على الأقل يقترب منا سريعًا وعلى نحو لا مناص منه- وأود أن أخفِّف من هذا العبء عليك وعليَّ في الوقت ذاته[1]. وأعلم بالطبع أنك تواجه احتمال الشيخوخة بهدوء وحكمة، وأنك ستواصل القيام بذلك في المستقبل، على النحو الذي تواجه به كافة أمور الحياة. ولكن مع ذلك، فإنني حينما فكرت في الكتابة حول هذا الموضوع، ما فتئتْ صورتك تراود خيالي. وأود أن يصبح هذا الكتاب الصغير هدية قيمة نحتفي بها سويًا. وفي واقع الأمر، فقد استمتعت كثيراً بتأليف هذا العمل إلى الحد الذي جعلني أستبعد كل الأفكار المتعلقة بمساوئ التقدُّم في العمر، وحوَّلتها بدلًا عن ذلك إلى احتمالات سارة ومبهجة.

إننا حقيقة لا يمكننا المغالاة في مديح مشاعر الحب والتماس الحكمة، ما دامت هذه المشاعر تتيح لكل شخص أن يتمتع في كل مراحل حياته بالتحرر من القلق.

٣ - لقد كتبت الكثير من قبل حول مسائل أخرى، وسوف أفعل ذلك في المستقبل، ولكن هذا الكتاب الذي أرسله إليك الآن هو -كما سبق لي أن ذكرت-عن الشيخوخة. وحينما كتب أريستو من جزيرة كيوس اليونانية عن هذا الموضوع، جعل تيثونوس متحدِّثًا باسمه، ولكني أعتقد أنه من الخطأ منح هذه السلطة لشخصية خرافية[2]. وعوضًا عن ذلك، فقد آثرت أن تكون كلماتي على لسان المسنّ

---

(١) في الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب، كان أتيكوس في الخامسة والستين من العمر، وكان شيشرون في الثانية والستين.

(٢) ربما كان أريستو المشار إليه هنا هو أحد فلاسفة القرن الثالث قبل الميلاد القادمين من جزيرة سيوس. وكان تيذونوس أميرًا أسطوريًا من طروادة، منحه زيوس، كبير الآلهة الإغريق، بناء على طلب الإلهة إيوس، إلهة الفَجْر عند الإغريق - الخلود دون أن يمنحه الشباب الدائم. وحينما أدركته الشيخوخة والخرف، جعل يتغضَّن حتى لم يبق منه سوى قشور ذابلة وصوت أجش.

ماركوس كاتو حتى تؤخذ على محمل أكثر جدية. وإنني أتخيل أن لايليوس وسكيبيو موجودان معه في منزله يطريان على طريقته في التعامل مع شيخوخته[1].

وإذا كان يبدو من ردوده أنها أكثر عمقًا ممّا تعكسه كتاباته؛ فإن ذلك يُعْزَى إلى دراسته للأدب اليوناني الذي درسه بعناية في سنواته الأخيرة.

بيد أنه ليس هناك ما يدعوني إلى الاستفاضة في هذا الموضوع. ومن الآن فصاعدًا، سأترك لكاتو التعبير عن أفكاري حول موضوع الشيخوخة.

---

(١) ماركوس بروكيوس كاتو (٢٣٤-١٤٩ قبل الميلاد)، كان سياسيًا رومانيًا اشتهر بصرامته، ومن الكتّاب الذين أعجب بهم شيشرون أشد الإعجاب. وفي العام الذي وضع فيه هذا الكتاب (١٥٠ قبل الميلاد)، كان كاتو يبلغ من العمر ٨٤ عامًا، وهي سن مرتفعة بالنسبة إلى أحد الرومان القدماء. وكان صديقاه الأصغر سنًا هما سكيبيو أميليانوس، الذي سيدمّر قرطاج في الحرب البونية الثالثة بعد ذلك بأربعة أعوام، وجايوس لايليوس، المتكلم الرئيسي في حوار شيشرون المعنون «عن الصداقة».

31

المحادثة مع كاتو

٤ - سكيبيو: حينما أتحدَّث، يا ماركوس كاتو، مع جايوس لايليوس، فإننا كثيراً ما نعرب عن إعجابنا بفهمك للأمور وبحكمتك عمومًا، ولكن بصورة أخص لأن موضوع الشيخوخة لم يكن أبدًا من الأمور التي تبعث على قلقك. ويتباين هذا الوضع مع الشكاوى التي يرددها معظم كبار السن الذين يزعمون أن الشيخوخة تشكل بالنسبة إليهم عبئًا أشد وطأة من جبل إتنا[1].

كاتو: أعتقد يا صديقيَّ أن سر إعجابكما بي ليس بالمسألة العويصة. فهؤلاء الذين يفتقدون داخل أنفسهم المواردَ التي تمكِّنهم من العيش حياة هانئة وسعيدة سيشعرون بالألم في أي مرحلة من مراحل عمرهم. ولكن الذين يرجون الحسنى في داخلهم فإن أيًّا ما تفرضه عليهم الطبيعة لن يسبِّب لهم أي ضيق. والشيخوخة هي مثال صادق على ذلك. وكل إنسان يأمل في الوصول إلى سن الشيخوخة، لكنها حينما تحل، يشرع معظمنا في الشكوى منها. فهكذا الناس على هذا القدر من الغباء وعدم الثبات.

فهم يقولون إن الشيخوخة داهمتهم بأسرع ممَّا يتوقَّعون. ولكن دعنا نسأل أولًا، على من يقع اللوم في هذا الحكم الجائر؟ هل الشيخوخة تسلب من العمر أكثر مما يسلب الشباب من الطفولة؟ وهل سيكون عبء الشيخوخة أقل وطأة عليهم إذا كانوا يقتربون من سن الثمانمائة عام بدلًا من سن الثمانين؟ ولو كان المسنُّون أغبياء فلا

---

(١) بركان هائل في شرق صقلية.

عـزاء لهـم عـما يمـر عليهـم مـن وقـت، أيًّـا كان العمـر الـذي سيعيشـونه.

٥ - وهكـذا، فـإن كنتـم تجاملوننـي عـلى مـا أتمتـع بـه مـن حكمـة -وأتمنـى أن أكـون جديـرًا بهـذا التقديـر وبمـا أحملـه مـن اسـم[1]- فإننـي لا أسـتحق هـذا الإطـراء إلا فيـما يتعلـق بمـا يـلي فقـط: إننـي أسـير وفـق مـا ترشـدني إليـه الطبيعـة وأجعلهـا دليـلي المفضـل الـذي أطيـع مـا يمليـه عـليّ. ومـا دامـت الطبيعـة هـي التـي خططـت بعنايـة للمراحـل الأخـرى مـن الحيـاة؛ فـلا أظـن أنهـا سـتهمل كتابـة الفصـل الأخـير. وهـو فصل لا بُدّ منـه كالفاكهـة والأشـجار التـي لا بُـدَّ لهـا أن تـذوي وتسـقط ذات يـوم. ولكن الشـخص الحكيـم يـدرك ذلـك ويتقبلـه برحابـة صـدر. فالوقـوف ضد طبيعة الأمـور لا جـدوى منـه، وهـو أشـبه بمعـارك المـردة ضـد الآلهـة .

٦ - لايليـوس: حقًّـا مـا تقـول يـا كاتـو، ولكـن لنـا طلـب خـاص منـك، وأعتقـد أننـي أتكلـم أيضـا بالنيابـة عـن سـكيبيو؛ إننـا نأمـل كلينـا في أن نظـل عـلى قيـد الحيـاة إلى أن نصبـح مسـنِّين ذات يـوم، ولـذا فسـيكون مـن دواعـي امتناننـا أن تعلِّمنـا كيـف يمكـن لنـا أن نتحمَّـل بأقـصى قـدر مـن المعقوليـة ثقـل السـنوات المقبلـة.

كاتـو: سـيكون ذلـك مـن دواعـي سروري يـا لايليـوس، إن كان ذلـك هـو حقًّـا مـا تريـد.

لايليـوس: إن هـذا هـو مـا نريـده بالفعـل، مـا لم يكـن في ذلـك إزعـاج كبـير لـك. لقـد مضيـت أنـت بالفعـل بعيـدًا عـلى هـذا الطريـق وسـوف نتبعـك، ولذلـك فإننـا نـود أن نتعـرف منـك عـلى خبايـا الرحلـة.

---

(١) في الميثولوجيا الإغريقية، ثارت المردة ضد آلهة جبل أولمب ومُنيت بالهزيمة.

٧ - كاتو: سأبذل قصارى جهدي. لقد سمعت كثيرًا عن شكاوى الناس في سنّي، وكما يقول المثل القديم: «الطيور على أشكالها تقع»، وبخاصة جايوس ساليناتور وسبوريوس ألبينوس، وهما من معاصريَّ القريبين ومن القناصل السابقين، وكانا دائمي النحيب لأن الشيخوخة سلبتهما ملذات الحياة الحسية، وهي الملذات التي بدونها -على الأقل بالنسبة إليهما- لا تستحق الحياة أن تعاش[1]. ثم شكوا من أنهم لم يعودوا يلقون العناية من الأشخاص الذين كانوا يهتمون بهم من قبل. ولكني أرى أن لومهم ليس في محله. فلو كانت شيخوختهم هي المشكلة الحقيقية؛ لكنت قد لقيت المصير نفسه، وكذلك جميع الأشخاص كبار السن. ولكني عرفت الكثير من كبار السن الذين تقدَّم بهم العمر دونما شكوى، ودون أن يفقدوا أي أواصر من أواصر الملذات الحسية والذين لم يهملهم أصدقاؤهم. ومرة أخرى أقول إن إلقاء اللوم فيما يتعلق بكل أنواع هذه الشكاوى هو مسألة تتعلق بشخصية الشاكي، وليس بعمره. والأشخاص المسنون المتعقلون، وذوو السجايا الطيبة والسمحون سوف يتحملون الشيخوخة جيدًا. أما ضعاف الروح وذوو الطباع الحادة فلن يكون من نصيبهم سوى التعاسة في كل مراحل حياتهم.

٨ - لايليوس: هذا صحيح دون شك يا كاتو. ولكن ماذا لو قال أحدٌ إن ثروتك وممتلكاتك ووضعك الاجتماعي -وهي مزايا لا يحصل

---

(١) كان كل من ساليناتور وألبينوس قنصلاً لعدة سنوات بعد تولي كاتو هذا المنصب.

عليها في حياتهم إلا القليلون- هي التي جعلت شيخوختك ممتعة إلى هذا الحد؟

كاتو: هناك شيء من الصحة في ذلك يا لايليوس، ولكنها ليست الحقيقة كاملة. وتذكر حكاية ثيميستوكليس مع ذلك الرجل من سيريفوس [1]. فقد كان الرجلان يتناقشان ذات يوم، وقال الرجل القادم من سيريفوس إن ثيميستوكليس لا يحظى بالشهرة إلا بسبب المجد الذي حقّقته مدينته، وليس لما حقّقه هو شخصيًا من إنجازات. وحينها قال ثيميستوكليس: «أقسم بحق هرقل أن هذا صحيح، فما كنت أحظى بالشهرة لو كنت من سيريفوس، وما كنتَ لتحظى بها أنت لو كنت من أثينا». ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الشيخوخة. فهي لا تشكّل عبئًا هيّنًا على الحكيم حتى وإن كان فقيرًا. أما بالنسبة إلى الشخص الأحمق فإن أموال العالم لن تسهل عليه من آلام الشيخوخة.

٩ - يا عزيزيَّ سكيبيو ولايليوس، إن للشيخوخة خطوطها الدفاعية المناسبة، ألا وهي الدراسة وممارسة الحكمة والعيش اللائق. ولو غرستما هذه المبادئ في كل مرحلة من مراحل حياتكما فإنها ستؤتي أكلها الوفيرة حينما تكبران. ولن يسفر حصادها عن مجرد ثمار رائعة في ختام حياتكما -وهو أمر أساسي في مناقشتنا الحالية- لكنكم ستشعرون بالرضى؛ لأنكم ستدركون أنكم استمتعتم بحياتكم، وكان

---

(١) كان ثيمستوكليس قائدًا لجيوش أثينا في انتصارها على الأسطول الفارسي في معركة سالاميس في عام ٤٨٠ قبل الميلاد. وكانت سيريفوس جزيرة صغيرة لا يُعْتَدُّ بها في بحر إيجة.

لكم فيها الكثير من الذكريات والأعمال الطيبة.

١٠ - لقد كنت في شبابي مولعًا بالقائد كوينتوس ماكسيموس، الذي تمكّن من استعادة تارينتوم بعد سقوطها كما لو كنّا في نفس العمر، مع أنه كان شيخًا وكنت أنا بعد غلامًا [١]. وكان رجلاً مبجّلاً وودودًا ولم يغير العمر من صفاته. وحينما بدأت في التعرف عليه لم يكن بعد قد تقدم في السن لكنه بالتأكيد كان متقدمًا في العمر. فقد أصبح في البداية قنصلًا في العام الذي ولدت فيه. وفي الفترة الرابعة التي خدم فيها كقنصل لروما، كنت جنديًا شابًا، وسافرت معه إلى كابوا، وبعد ذلك بخمس سنوات إلى تارينتوم. وبعد ذلك بأربع سنوات، حينما أصبح تاديتانوس وسيذيغوس قنصلين، أصبحت كويستورًا (وهي وظيفة إدارية مهمة في الجمهورية الرومانية). وفي الوقت نفسه، كان كوينتوس ماكسيموس يلقي الخطب تأييدًا لقانون سينيكا بشأن الهدايا والجوائز، رغم أنه كبير السن إلى حد كبير آنذاك [٢].

ورغم أنه كان متقدمًا في العمر، فقد كان يحارب كما لو كان شابًا صغير السن، وأنهك بصموده روح الشباب والمثابرة التي كان يتمتع بها حنبعل. ولقد أطراه صديقي إنيوس إطراءً عظيمًا؛ حيث قال عنه ما يلي:

---

(١) استعاد كوينتوس فابيوس ماكسيموس تارينتوم في جنوب إيطاليا في عام ٢٠٩ قبل الميلاد خلال الحرب البونية الثانية. يصفه منتقدوه بالتقاعس بسبب استراتيجيته التي اتسمت بالحذر، وإن كانت لها فعاليتها، ضد حنبعل، وصار قنصلًا خمس مرات، وحاكمًا مرتين قبل وفاته في عام ٢٠٣ قبل الميلاد.

(٢)حظر قانون سنيكا (٢٠٤ قبل الميلاد) الهدايا التي قد تتعارض مع إقامة العدل، بما في ذلك الأتعاب التي يحصل عليها المحامون من عملائهم.

«إنه الرجل الذي أنقذ بلدنا بتقاعسه عن الفعل.
فقد رفض أن يجعل سمعته فوق سلامة روما،
وأصبح مجده الآن أقوى وأنصع».

١١ - ما أروع ما أبداه من حرص ومهارة في تحرير تارينتوم! لقد سمعت بنفسي القائد الروماني سالينيتور -الذي خسر المدينة وفرَّ إلى القلعة- سمعته يشيد به قائلًا: «أي كوينتوس فابيوس، إنك تدين لي بتحرير تارينتوم».[١] وضحك الجنرال وقال ردًّا على ذلك: «هذا صحيح بالتأكيد، حيث أنه لم يكن يتعيَّن عليَّ تحرير المدينة لو خسرتها أنت في بادئ الأمر».

وبقدر ما كان فابيوس جنديًّا رائعًا كان كذلك رجل سياسة. فحينما كان قنصلًا للمرة الثانية، حاول القاضي غايوس فلامينيوس فصل أراضي البايسين والغال رغم المعارضة الصريحة لمجلس الشيوخ. ومع أن زميله سبيريوس كارفيلينوس التزم الصمت؛ فإن فابيوس بذل كل ما في وسعه لمعارضة فلامينيوس[٢]. وحينما كان ضالعًا في العمل كعرَّاف، جرؤ على القول بأن كل ما يتكهن به هو لصالح الدولة، وأنه من صالح الدولة ألا تعترض على تنبؤاته[٣].

---

(١) إحدى زلّات شيشرون، فلم يكن القائد الذي يشير إليه هو فعلاً ماركوس ليفيوس سالينيتور، ولكن أحد أقربائه، ويُدعى ماركوس ليفيوس ماكاتوس.

(٢) اقترح فلامينيوس هذا القانون لتوطين المواطنين الرومان في الأراضي المشاع الواقعة شمالي إيطاليا.

(٣) مارس كل من الإغريق والرومان القدماء صنعة العرافة -التنبؤ بأحداث المستقبل عن طريق مراقبة الطيور- لمعرفة ما إذا كانت الآلهة تقر تصرفاتهم. وفي روما، كان النظام محكومًا بمجلس للكهنة يتم اختيار أعضائه مدى الحياة.

١٢ - وبوسعي أن أؤكد لكم استنادًا إلى ملاحظتي الشخصية أن هذا الشخص كان يتمتَّع بصفات مدهشة، ولكن لعل أهمَّها كان الطريقة التي تحمَّل بها موت ابنه، الذي كان قنصلًا سابقًا مرموقًا. والخطبة التي ألقاها في جنازته متاحة لنا، ويمكننا قراءتها كي يتبين لنا أي فخار ينبغي أن يحظى به هذا الفيلسوف. ولم يكن فابيوس محل تقدير عام فقط وهو بين ظهرانيه العاديين؛ لكن هذا التقدير كان يتجلَّى بصورة أكبر في حياته الخاصة، وداخل منزله. ولقد كانت محاوراته، ونصائحه الأخلاقية، ومعرفته بالتاريخ، وخبرته بقوانين العرافة، كانت كلها محل دهشة للجميع. وكان مقروءًا بكثرة من جانب جميع الرومانيين، وكان يعرف كل شيء ليس فقط عن حروبنا؛ ولكن أيضًا عن نزاعاتنا الخارجية. وكنت أحرص على الاستماع إليه آنذاك كما لو كنت أتنبأ بما حدث، وحينما مضى لم يعد هناك أحد أتعلَّم منه.

١٣ - لماذا أطنبتُ في الحديث عن فابيوس ماكسيموس؟ لقد فعلتُ ذلك على أمل أن تدركوا أي خَطَلٍ في وصف الشيخوخة التي عاشها بأنها كانت شيخوخة تعيسة. وبطبيعة الحال، ليس بمقدور كل إنسان أن يكون مثل سكيبيو أو فابيوس ويتحدث عن المدن التي غزاها والمعارك التي خاضها والانتصارات التي حققها. ولكن هناك شيخوخة من نوع آخر، وأعني بها ختام الحياة في سلام وطمأنينة وهدوء وعزة دون لومة لائم. لقد عاش أفلاطون على هذا النحو في سنواته الأخيرة، وكان لا يزال يكتب حينما مات في سن الحادية والثمانين[1]. وكان

[1] كان أفلاطون تلميذًا لسقراط، وهو أحد أشهر الفلاسفة الأقدمين المؤثرين (٤٢٧- ٣٤٧ قبل الميلاد تقريبًا).

إيسقراط مثالًا آخر على ذلك، فهو يخبرنا بنفسه أنه كان في الرابعة والتسعين من عمره حينما ألَّف كتابه «باناثينايكوس»، وقد عاش بعد ذلك خمسة أعوام أخرى[1]. وعاش معلمه جورجياس الليونتيني حتى عيد ميلاده السابع بعد المائة، بدون أي راحة من الدراسة والعمل[2]. وحينما سأله أحدهم لماذا أراد أن يعيش طويلًا، رد بقوله: «لا سبب لديَّ للشكوى من الشيخوخة». وهو ردٌّ نبيل من عالم جدير بالاحترام.

١٤ - إن الحمقى هم الذين يلقون باللائمة على الشيخوخة لما يرتكبونه من أخطاء أو يعانونه من أوجه قصور. ومن المؤكد أن إينيوس، الذي أشرت إليه منذ قليل، لم يفعل ذلك لأنه يقارن نفسه كشيخ عجوز بحصان سباق مشهود له بالمهارة والفوز:

«...كمثل حصان شجاع، كثيرًا ما كُتب له الفوز في السباقات الأوليمبية في القفزة الأخيرة، أضعفته الآن شيخوخته فغدا يلتمس الراحة».

لعلكما تتذكَّران إينيوس جيِّدًا فقد مات قبل ١٩ عامًا فقط من انتخاب قنصلَيْنا الحاليين: تيتوس فلامينيوس ومانيوس أكيليوس، في ذلك الوقت الذي يعود إلى عصر القنصلين كايبو وفيليبوس (وكان الأخير يخدم فترته الثانية). لقد كنت في الخامسة والستين من العمر حينما توفي، وألقيت خطبة أيدت فيها قانون فوكونيا بصوت جَهْوَرِيٍّ وقوة عزيمة[3]. وكان إينيوس آنذاك في السبعين من عمره وكان يعاني

(١) خطيب من أثينا، ومعلِّم للبلاغة (٤٣٦-٣٣٨ قبل الميلاد).
(٢) سفسطائي يوناني ومعلم للبلاغة من صقلية (٤٨٥- ٣٨٠ قبل الميلاد تقريبًا).
(٣) قانون أجيز في عام ١٦٩ قبل الميلاد يحدُّ من حق المرأة في الميراث.

مما يعتبره الناس أثقل حملين في الحياة: الفقر والشيخوخة. لكنه تحمّلهما إلى حد يجعلكما تعتقدان أنه استمتع بهما.

١٥ - حينما أفكر في الشيخوخة، يمكنني أن أجد أن هناك أربعة أسباب تجعلها بالغة التعاسة:

الأول: أنها تبعدنا عن ممارسة النشاط، والثاني: أنها تضعف أجسامنا، والثالث: أنها تحرمنا تقريبا من جميع ملذّاتنا الحسيَّة، والرابع: أنها ليست بعيدة عن الموت.

دعونا، لو سمحتم لي، نلقي نظرة على كل سبب من هذه الأسباب، على حدة، لنرى ما إذا كانت صحيحة أم لا.

دعونا ننظر أولًا في الزعم القائل بأن الشيخوخة تحرم الإنسان من الحياة النشيطة. فعن أي نوع من الأنشطة نتحدث؟ ألا نعني بذلك الأنشطة التي نشارك فيها ونحن شباب أقوياء؟ ولكن من المؤكد أن هناك أنشطة تناسب عقول الأشخاص الأكبر سنًّا حتى وإن أصاب الوهنُ الجسدَ. ألم تكن هناك أعمال مهمة قام بها كوينتوس ماكسيموس الذي أشرت إليه من قبل، وقام بها لوسيوس باولوس؛ والدك أنت بالذات يا سكيبيو، وكذلك والد زوجة ابني؛ أعز الرجال؟[1]. وماذا عن الشيوخ الآخرين أمثال فابريسيوس وسيوريوس وكوريونكانيوس؟[2]ألم يكونوا يعملون وهم يستخدمون حكمتهم ونفوذهم في حماية بلدهم؟

١٦ - إن آبيوس كلوديوس لم يكن فقط عجوزًا لكنه كان أيضًا ضريرًا ذاهبَ البصر حينما كان يتكلم أمام مجلس الشيوخ الذي كان يؤيد معاهدة سلام مع بيروس، ملك أيبريا[3] . ومع ذلك؛ فإنه لم يتردد في أن ينطق بالكلمات التي رددها إينيوس شعرًا، والتي تقول:

«أي جنون أصاب عقولكم التي كانت يومًا رزينة وصامدة، فجعلها تحيد عن صوابها؟».

(١) لوسيوس أميليوس باولوس، الذي هزم المقدونيين في معركة بيدنا في عام ١٦٨ قبل الميلاد.

(٢) غايوس فابريسيوس لوسينيوس (كان قنصلاً في عامَيْ ٢٨٢ و ٢٧٨ قبل الميلاد) واشتهر بالأمانة وعدم الفساد. أما مانيوس سيوريوس دينتاتوس فكان قنصلًا أربع مرات وتمكّن من إنهاء الحرب السامنية الثالثة في عام ٢٩٠ قبل الميلاد. وانتصر تايبيريوس كوريونكانيوس على الإيتروسكانيين وكان قنصلًا في عام ٢٨٠ قبل الميلاد.

(٣) كان آبيوس كلوديوس كايكوس قنصلاً خلال الفترة من ٣٠٧ إلى ٢٩٦ قبل الميلاد.

ويمضي في قصيدته بأسلوبها الأخَّاذ. لكنكم تعرفون القصيدة، كما أن خطاب آبيوس لا يزال قائمًا في واقع الأمر. ولقد ألقى خطابه هذا بعد سبعة عشر عامًا من انتهاء فترة عمله كقنصل للمرة الثانية -على الرغم من أن فترة عشر سنوات فصلت بين الفترتين- وهكذا ترون أنه كان عجوزًا جدًّا إبَّان الحرب مع بيروس. ومع ذلك؛ فتلك هي قصته كما سجَّلها أسلافنا.

١٧ - إن الذين يقولون إنه ليست هناك أنشطة مفيدة تتعلق بالشيخوخة يجهلون ما يتحدثون عنه. إنهم كهؤلاء الذين يقولون إن القبطان لا يفعل شيئًا مفيدًا لكي تبحر السفينة لأن هناك آخرين يتسلَّقون القلاع ويجرون عبر الممرات ويشغلون المضخات بينما هو يجلس مستريحًا في قمرة السفينة ممسكًا بدفتها. فهو وإن كان لا يقوم بما يقوم به البحارة الأصغر سنًّا؛ إلا أن ما يقوم به هو أهم وأقيم. فالأفعال العظيمة لا يقيَّم أداؤها بما استخدم فيها من قوة وسرعة ورشاقة بدنية لكنه يقيَّم بالحكمة وقوة الشخصية والحكم المتَّزن. وتتوفَّر هذه الصفات للأشخاص في شيخوختهم؛ بل إنها تنمو وتزداد ثراء مع مرور الوقت.

١٨ - وخلال حياتي خدمت كجندي عادي، وكضابط مبتدئ، وأخيرًا، حينما أصبحت قنصلًا، كقائد عام. وحيث أنني لم أعد أحارب في الحروب، ربما تظنان أني أصبحت لا أفعل شيئًا. ولكن مجلس الشيوخ ينصت لي حينما أتكلم عن الحروب التي يجب خوضها وكيف نخوضها. وحتى الآن، فإنني أرنو إلى المستقبل وأخطط لشن الحرب

على قرطاج. إن مخاوفي إزاء هذه المدينة لن تهدأ أبدًا إلا إذا عرفت أنها دُمرت عن بكرة أبيها[1].

١٩ - وإنني لأتوجه بالدعاء إلى آلهة الخلود بأن تحفظ لك، يا سكيبو، شرف إتمام العمل الذي تركه جدك دون أن يتمه. لقد مر ٣٣ عامًا منذ أن مات الرجل الذي كان من أعظم الرجال، ولكن شهرته تزداد على مر الأعوام. لقد مات جدك قبل أن أصبح مراقبًا عامًا، بعد تسع سنوات من انتخابي قنصلًا، وفي خلال ذلك الوقت، تم انتخابه هو نفسه قنصلًا للمرة الثانية.

فهل كان جدك سيندم لو عاش حتى سن المائة من العمر؟ كلًا بالتأكيد. لو كان ذلك قد حدث؛ فإنه ما كان ليمضي وقته في الجري أو القفز أو في توجيه رماحه أو التدرب على سيفه، لكنه كان سيمضيه في الاستعانة بما لديه من حكمة وتعقُّل وحسن تقدير. إن الشيوخ إذا لم يتمتعوا بهذه الصفات؛ ما كان أسلافنا ليطلقوا اسم «مجلس الشيوخ» على أسمى مجالسنا[2].

٢٠ - وبين الاسبرطيين كذلك، كان يطلق على الذين يشغلون مناصب هامة «الشيوخ» وهو اسم يعبر عن حقيقة وضعهم تمامًا. وإذا قرأتم أو سمعتم عن تاريخ الأراضي الأجنبية، فسوف تعلمون أن الشباب هم وراء الانقلابات في أعظم الدول، وأن الشيوخ وراء استعادتها. وكما يقول نايفوس في مسرحيته اللعبة[3]:

---

(١) اشتهر كاتو بأنه كان دائم الإعلان في مجلس الشيوخ أنه لا بُدَّ من تدمير قرطاج.

(٢) كان مجلس الشيوخ هو المجلس الذي يضم كبار المسنين (الشيوخ).

(٣) عاش نايفوس في القرن الثالث قبل الميلاد وكان من أوائل كتاب المسرحية اللاتينيين.

«قل لي، كيف خسرت وطنك بهذه السرعة؟».

وكان الرد ذا المغزى الأعمق لهذه الشخصية ما يلي:

«لأن متكلمين جُدُدًا حلُّوا، حمقى وصغار السن».

إن الاندفاع هو حقـًا آفة الشباب، ولكن الحكمة هي زينة الشيخوخة.

٢١ - سيقول البعض إن الذاكرة تخبو على مر السنين. إنها تخبو بالطبع إذا لم تدرِّبها وما لم تكن خارق الذكاء في المقام الأول. لقد حفظ ثيموستوكليس عن ظهر قلب أسماء جميع المواطنين في أثينا. فهل تعتقد أنه في شيخوخته صار يخلط بين أريستيدس وليزيماكوس وهو يحيِّيهما؟ [1]. إنني نفسي أتذكر ليس فقط الأشخاص الذين يعيشون حاليًا، ولكن أيضًا آباءهم وأجدادهم. وحينما أقرأ ما كتب فيهم من رثاء، لا يساورني الخوف من فقدان ذاكرتي كما تقول الخرافات، ولكني أسترجع ذكرياتهم مجددًا. ولم أسمع مطلقًا عن أي مصاب بالشيخوخة نسي المكان الذي خبأ فيه نقوده! فالمسنُّون يتذكرون دائمًا ما يهمهم؛ كمواعيد مثولهم أمام المحكمة، أو أسماء دائنيهم أو مدينيهم.

٢٢ - وماذا عن المسنِّين من المحامين، والقُسس، والمنجِّمين، والفلاسفة؟ وما أكبر حجم المعلومات التي يتعيَّن عليهم أن يتذكَّروها! ويتمتَّع المسنُّون بعقول سليمة ما داموا حريصين على التعلُّم والمثابرة. ويصْدُق ذلك ليس فقط على الشخصيات العامة؛ ولكن أيضًا بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون حياة عادية بسيطة.

(١) أريستدس هو ابن ليزيماكوس، وكان عدوًّا لدودًا لثيموستوكليس.

وقد ألّف سوفوكليس تراجيدياته وهو في شيخوخته[1]. وحينما بدا أنه يهمل الإنفاق على أسرته بسبب شغفه بالكتابة، جرّه أبناؤه إلى المحاكم لتجريده من أهليته بحجة عدم السلامة العقلية (فقد كان لديهم مثلنا قوانين تتيح فرض هذه العقوبات على أرباب الأسر الذين يسيئون إدارة شؤون أعمالهم). ويقولون إن سوفوكليس قرأ على هيئة المحكمة مسرحيته «أوديب في كولونا» التي كان قد انتهى لتوّه من كتابتها، ولم يكن حتى قد راجعها، وسأل الحضور بعد أن انتهى من قراءتها إن كان ما سمعوه يشي بأنه عمل رجل مخبول. وعلى الفور أفرجت عنه المحكمة إثر الانتهاء من قراءته.

٢٣ - ومن الواضح أن سوفوكليس لم يكن لتردعه الشيخوخة؛ شأنه في ذلك شأن هوميروس أو هيسيود أو سيمونايديس أو ستيسيكوراس، أو المفكرين اللذين أشرت إليهما من قبل: سقراط وجورجياس، ناهيكم عن فلاسفة بارزين؛ مثل فيثاغورث وديموقريتوس وأفلاطون وزينوقراط،أو من جاءوا بعدهم؛ مثل زينو وكليانتش أو ديوجين الرواقي، اللذين شاهدتموهما كليهما في روما[2]. ألم يعش كل هؤلاء حياة نشطة حافلة بالعمل طيلة حياتهم؟

---

(١) كاتب مسرحي شهير من أثينا عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(٢) سيمونايديس (القرنان السادس/الخامس قبل الميلاد) شاعر غنائي؛ و ستيسيكوراس (أوائل القرن السادس قبل الميلاد) شاعر غنائي؛ وفيثاغورث (أواخر القرن السادس قبل الميلاد)، عالم رياضيات وفيلسوف؛ وديموقريتوس (القرنان الخامس/الرابع قبل الميلاد)، فيلسوف وواضع نظرية الذرة؛ وزينوقراط (القرن الرابع قبل الميلاد)، فيلسوف؛ وزينو (القرن الخامس قبل الميلاد)، فيلسوف؛ وكليانتش (تقريبا ٣٣١-٢٣٢ قبل الميلاد)، فيلسوف؛ وديوجين بابل (تقريبا ٢٤٠-١٥٢ قبل الميلاد)، فيلسوف زار روما في ١٥٦-١٥٥ قبل الميلاد.

٢٤ - ولكـن إذا وضعنـا جانبًـا هـؤلاء الرجـال الاسـتثنائيين وأعمالهـم؛ يمكننـي أن أذكـر لكـم أسـماء مزارعـين رومانيـين مسـنِّين مـن قبيلة سابيون الريفيـة، الذيـن كانـوا جـيراني وأصدقـائي، ولم يكونـوا بالـكاد يخرجـون مـن حقولهـم أثنـاء عمليـات الزراعـة الرئيسـية كغـرس البـذور والحصاد وتخزيـن المحاصيـل. وعـلى الرغـم مـن أن عملهـم كان أقـل أهميـة مـن بعـض أنـواع الأعـمال الأخـرى؛ فليـس هنـاك حقًّـا مـن تبلـغ به الشـيخوخة حـدًّا لا يجعلـه يتوقـع أن يعيـش عامًـا آخـر، غـير أن هـؤلاء الرجـال كانـوا يدركـون أنهـم يقومـون بمهـام لـن يعيشـوا لإنجازهـا. مثلما يقـول الشـاعر الرومـاني كايسـيليوس سـتاتيوس في قصيدتـه الرفـاق الشـباب[1]:

«إنه يغرس الأشجار لمنفعة جيل آخر».

٢٥ - ولـو أنـك سـألت مزارعًـا، أيًّـا كان عمـره، لمـن تـزرع؟. لـكان ردّه دائمًـا: «للآلهـة المخلَّديـن، الذيـن لم يورِّثـوني فقـط كل هـذه الأشـياء عـن أسـلافي؛ لكنهـم سـيورِّثونها أيضًـا لذرِّيتـي».

وحينـما كتـب كايليسـيوس عـن ذلـك المسـنِّ الـذي يغـرس الأشجار مـن أجـل الأجيـال المقبلـة، قـال أيضًـا كلامًـا رائعًـا:

«حقًّـا أيتهـا الشـيخوخة: كفـاك شرًّا أنـك تجعلـين المسـنَّ يـرى في حياته مـا لم يـود أن يـراه!!».

ولكـن، لعـل هـذا المسـن نفسـه يـرى الكثـير مـما يحـب أن يـراه! وعلى أية حـال، فحتـى الشـباب أنفسـهم يـرون في حياتهـم الكثـير مـمَّا لم يكـن يـودون رؤيته.

(١) شاعر كوميدي روماني عاش في القرن الثاني قبل الميلاد.

ولعل من المشاعر الأسوأ الأخرى التي عبَّر عنها كايسيليوس قوله:

«أعتقد أن أسوأ ما في الشيخوخة هو شعورك بأنك تثير ضجر الشباب».

٢٦ - وأقول لكم: كلَّا، فالأمر ليس كذلك! فالرجل المسن يمكن أن يثير المتعة أكثر ممَّا يثير الضجر. وكما يستمتع المسنُّون الحكماء بصحبة الشباب حَسَنِي الطوية الذين يخفِّفون عنهم ثقل الشيخوخة بما يلقونه منهم من عواطف وتكريم، فالشباب أيضًا يستمتعون بمشورة كبار السن التي تدعوهم إلى الفضيلة. وأظن يا صديقيَّ، وأنتما من الشباب، أنكما تستمتعان بصحبتي بقدر ما أستمتع بصحبتكم.

وهكذا ترون أن الشيخوخة، أبعد عن كونها وقتًا للضعف والخمول، يمكن أن تكون وقتًا للنشاط الدائب وتجعلك دائم الانشغال في عمل شيء ما، كما أنها توالي اهتمامات المرء في مرحلة الشباب. ولا ينبغي أن تتوقفوا عن طلب العلم، مثلما يفخر صولون بأنه في شيخوخته كان يتعلَّم أشياء جديدة كل يوم[1]. ولقد فعلت الشيء نفسه، وقمت بتدريس اليونانية في شيخوختي. وعكفت على هذه الدراسة كشخص يحاول إشباع ولعه القديم. (وهكذا، بالمناسبة، تمكَّنت من أضرب لكم جميع الأمثلة التي سقتها في هذه المناقشة). ولقد سمعت أن سقراط تعلَّم في شيخوخته العزف على القيثارة، وهي آلتي الموسيقية المفضلة التي كان يستخدمها الأقدمون. وأتمنى أن أتمكن من ذلك أيضًا، ولكن على الأقل ركَّزت جهدي على الأدب.

(١) رجل دولة وقانون من أثينا (تقريبا ٦٣٨-٥٥٨ قبل الميلاد).

٢٧ - إنني لم أعد أتمنى قوة الشباب -وهي الاعتراض الثاني على الشيخوخة الذي تضمّنته القائمة- بأكثر مما كنت أتمنى في شبابي أن أتمتع بقوة الثور أو الفيل. فعلى الناس أن يستعملوا قوتهم بما يتناسب مع أعمارهم. ولعله ليس هناك ما يبعث على الرثاء في هذا الصدد أكثر مما يُروى عن ميلو الكروتوني[١]. فذات يوم، وحينما كان يشاهد في شيخوخته مصارعًا شابًّا، وهو يتدرب على حلبة السباق، ويقال إنه نظر إلى عضلاته هو وراح يبكي قائلًا: «عضلاتي هذه، ميتة الآن». لكنها لم تمت مثلك أيها الأحمق!! فشهرتك لم تنبع أبدًا منك، ولكن من قوة جوانحك وذراعيك.

لقد كان سكستوس أيليوس وتايبيريوس كورونكانيوس في العصور القديمة، وبوبليوس كراسوس في العصور الأحدث أشد اختلافًا عن ذلك. فلقد لقَّن هؤلاء الرجال مواطنيهم في أمور القانون وظلُّوا خبراء في الشؤون القانونية حتى النفس الأخير من حياتهم[٢].

٢٨ - إنني أخشى حقًّا أن يفقد أحد المتحدثين العامِّين بعضًا من قدرته على التأثير مع تقدمه في العمر؛ إذ أن مهارته لا تعتمد فقط على قوة فكره، ولكن أيضًا على قوة رئتيه وقوته البدنية. ولكن التقدم في العمر له تأثيره على جلاء الصوت وجعله أكثر تناغمًا.

(١) مصارع شهير من القرن السادس قبل الميلاد وفاز ست مرات في الألعاب الأوليمبية.

(٢) سكستوس أيليوس بايتوس (كان قنصلاً في عام ١٩٨ قبل الميلاد)، وكان من المعلقين على الألواح الاثني عشر للقانون الروماني؛ وكان بوبليوس لوسينيوس كراسوس دايفيس قنصلًا في عام ٢٠٥ قبل الميلاد.

إنني لم أفقد بعد هذه الميزة وأنتم تعلمون كم أبلغ من العمر الآن. ويتَّسم أسلوب التحدث المناسب في سنوات العمر المتقدمة بالاتزان والحيطة، وكثيراً ما يكون الصوت العجوز والهادئ أكثر مدعاة للاستماع والاقتناع. وحتى إذا لم يعد أحد قادرًا على الحديث جيِّدًا، لا يزال بمقدوره أن يوجِّه التعليمات لأمثال سكيبيو ولايليوس!

٢٩ - فماذا بالفعل قد يكون أكثر متعة من شيخوخة تلفُّها الحماسة والشباب؟ ومن المؤكَّد أنه علينا أن نتفق على أن المسنِّين لديهم من القوة على الأقل ما يمكِّنهم من تعليم الشباب وإعدادهم لتولي مسؤولياتهم في الحياة. فأي مسؤولية عساها أن تكون أرفع من ذلك؟ ويبدو لي حقيقة، يا سكيبيو، أن جنايوس وبوبليوس سكيبيو، وكذلك جدَّيْكُما لوسيوس أميليوس وبوبليوس أفريكانوس كانوا الأوفر حظًا في أنهم كانوا محاطين بحشود الشباب[1].

وأي شخص ممَّن يقدمون التربية الحرة للآخرين لا يمكن اعتباره غير سعيد، حتى وإن كان بدنه يعاني من الشيخوخة. وكثيراً ما تكون تجاوزات الشباب وليس الشيخوخة هي التي يتعيَّن إلقاء اللوم عليها لفقدان القوة الجسدية. فالشاب المستهتر والطائش يعطي شيخوخته جسدًا واهنًا.

٣٠ - ووفقًا لما نقله إلينا زينوفون، فقد أعلن قورش الحكيم وهو

(١) كان كل من جنايوس كورنيليو سكيبيو كالفوس وأخيه الأصغر بوبليوس كورنيليوس سكيبيو من جنرالات روما اللذين تُوفِّيا (في عام ٢١١ قبل الميلاد) وهما يحاربان جنود قرطاج في إسبانيا. وكان لوسيوس إيميليوس باولوس قنصلًا لروما وجنرالًا توفي في عام ٢١٦ قبل الميلاد في معركة كاناي. أما بوبليوس كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس فقد هزم حنبعل في معركة زاما (٢٠٢ قبل الميلاد) وأنهى الحرب البونية الثانية.

على فراش الموت في شيخوخته أنه لم يشعر أبدًا في شيخوخته أنه كان أقلَّ قوة مما كان في شبابه[1]. وأنا أيضًا أتذكر أنني حينما كنت غلامًا شاهدت لوسيوس ميتيلوس الذي أصبح -بعد أربع سنوات على توليه منصب القنصل لفترة ثانية- كبيرًا للكهنة، وظل يشغل هذا المنصب لمدة اثنين وعشرين عامًا[2]. وحتى أيامه الأخيرة، كان مفعماً بالنشاط حتى أنه على الرغم من شيخوخته لم يشعر أبدًا بأنه فقد شبابه. ولا أريد أن أشير إلى نفسي في هذا الصدد، على الرغم من أن كبار السن أمثالي يُسمح لهم باغتنام الملذَّات.

٣١ - أفلا ترون في أعمال هوميروس كيف أعلن نستور مرارًا وتكرارًا عمَّا يتمتَّع به من صفات مدهشة؟ [3]كان قد عاش ثلاثة أجيال من الرجال في هذه المرحلة من حياته، لكنه لم يخشَ أن يبدو ثرثارًا أو متعاليًا حينما يصف نفسه بصدق. فكما يقول هوميروس: «كان لسانه يقطر حديثًا أحلى من العسل»[4]. الآن لم تعد هذه الحلاوة في الحديث معتمدة بأي شكل من الأشكال على قوته البدنية، ومع ذلك فإن القائد اليوناني أجاممنون لم يتمنَّ أبدًا عشرة رجال مثل

(١) قورش الأعظم (القرن السادس قبل الميلاد) كان مؤسس الإمبراطورية الفارسية. ويقول زينوفون (موسوعة قورش ٨-٧) إنه مات متأثرًا بالشيخوخة، لكن روايات أخرى تشير إلى أنه مات في معركة ضد الإصقوث (السكوثيون).

(٢)لوسيوس كايسيليوس ميتيلوس، عمل قنصلاً عامي ٢٥١ و ٢٤٧ قبل الميلاد.

(٣)وفقا لهوميروس، فإن نستور العجوز حكم مملكة بيلوس وكان مستشارًا رئيسيًّا لأجاممنون، الذي قاد القوات اليونانية التي شنَّت الحرب على طروادة.

(٤) الإلياذة الجزء الأول -٢٤٩.

أجاكس، لكنه تمنَّى عشرة مثل نستور[1]. فليس لديه شك في أنه لو حصل على هؤلاء المحاربين، سرعان ما ستسقط طروادة.

٣٢ - ولكن دعوني الآن أتحوَّل إلى الحديث عن نفسي. إنني أبلغ من العمر الآن أربعة وثمانين عامًا، وأتمنى لو أمكنني أن أفاخر بنفس العمر الذي عاشه قورش. ولكن كل ما يمكنني أن أقوله هو التالي: إنني لم أعد أتمتع بالطاقة التي كنت أتمتع بها حينما كنت أخدم كجندي شاب في الحرب البونية، أو حينما كنت كويستورًا في الحرب ذاتها، أو حينما كنت قنصلًا وجنرالًا في إسبانيا، أو حينما خدمت بعد ذلك بأربع سنوات قاضيًا عسكريًا في الحملة على تيرموبيل تحت رئاسة القنصل مانيوس جلابريو[2]. ولكن مع ذلك، وكما ترون بوضوح؛ فإن الشيخوخة لم تفت من عضدي أو تحطِّمني. ولم يجد أي من مجلس الشيوخ أو الجمعية الشعبية أو أصدقائي أو مريديَّ أو ضيوفي أي ضعف في قوتي. ولا أعزو الفضل في ذلك إلى المثل القديم، والذي طالما لقي استحسانًا، والذي ينصحنا بالشيخوخة المبكرة إذا أردنا أن نعمِّر طويلًا. وبالنسبة إليَّ شخصيًّا، فإنني أفضِّل أن تكون شيخوختي قصيرة الأجل على أن أهرم سريعًا. ولذلك؛ فإنني لم أرفض أبدًا أي موعد مع أي شخص يريد لقائي.

(١) بعد أخيل، صار أجاكس المحارب اليوناني الذي لا يُشَقُّ له غبار.

(٢) أوفد كاتو إلى اليونان في عام ١٩١ قبل الميلاد بصحبة القنصل مانيوس أسيليوس جلابريو لدحر غزو قام به أنتيوكوس الثالث، حاكم الامبراطورية السلوقية. وفي السنة نفسها، ألحقوا الهزيمة بأنتيوكوس في ممر تيرموبيل حيث واجه الإسبرطيون الغزاة الفارسيين قبل ذلك بثلاثة قرون.

٣٣ - ولـئن كان صحيحًـا أننـي لا أتمتـع بالقـوة التي يتمتع بهـا أي منكما، لكـن دعـوني أقـول مـرة أخـرى إن أيًّـا منكـما ليـس في قـوة السـينتوريون تيتـوس بونتيـوس[1]. فهـل يعنـي ذلـك أنـه كان أفضـل منكـما؟ فلنـدع كل شـخص يسـتعمل بحكمـة أيًّـا أتيحـت لـه مـن مواطـن القـوة ويعمـل على اسـتخدامها جيـدًا. فـإن هـو فعـل ذلـك؛ لـن يعـوزه شيء. إنهـم يقولـون إن ميلـو قطـع مسـافة الملعـب الأوليمبـي وهـو يحمـل ثـورًا عـلى كتفيـه. ولكـن مـاذا تفضّـلان أنتـما الحصـول عليـه: القـوة البدنيـة التـي تمتَّـع بهـا ميلـو، أو القـوة العقليـة التـي تمتَّـع بهـا فيثاغـورث؟ خلاصـة القـول؛ اسـتمتعا بنعمـة القـوة البدنيـة وأنتـم تتمتعـون بهـا، ولكـن لا تنعياهـا حينـما تـزول أكـثر مـما ينعـي الشـاب مرحلـةَ طفولتـه، أو الشـخص الناضج شـبابَه الزائـل. فتلـك هـي ثمـار ينبغـي حصادهـا في أوانهـا.

٣٤ - وأتصـوَّر، يـا سـكيبيو، أنـك أحيانًـا تسـتمع إلى حكايـات عـن صديـق جـدك ومضيفـه ماسينيسـا، وهـو الآن في التسـعين مـن عمـره[2]. وكان مـا أن يبـدأ رحلتـه سـيرًا عـلى الأقـدام، لا يعتـلي أي حصـان. وبالمثـل؛ فـما أن كان يعتـلي حصانـه، لم يكـن ينـزل عنـه. وكان يمـضي عـاري الـرأس حتـى في أوقـات المطـر والـبرد. وهـو في حالـة جيـدة تسـمح لـه بـأن يـؤدي واجباتـه الملكيـة بنفسـه. وهـذا يبـين لكـما كيـف أن الرجـل الـذي يـداوم عـلى المـران والتدريـب وضبـط النفـس يمكنـه أن يظـل محتفظًـا بقوتـه حتـى وهـو في شـيخوخته.

(١) أحد الجنود الرومان من عصر كاتو اشتهر بقوته.

(٢) ملك نوميديا (توفي في عام ١٤٨ قبل الميلاد) وكان حليفًا للرومان في الحرب البونية الثانية ضد قرطاج.

ولكن دعونا نفترض أن الشيخوخة تصيبنا بالضعف؛ فما أهمية ذلك؟ فلا أحد يتوقّع أن يظل الناس أقوياء بدنيًّا في شيخوختهم. ولهذا فإن القانون والعرف يعفيان أمثالي من كبار السن من الواجبات العامة التي تتطلب قوة بدنية. فنحن لا يتوقع منا أن نؤدي مهامَّ لا يمكننا القيام بها، بل وحتى بعض الأشياء التي يمكننا القيام بها.

٣٥ - وبطبيعة الحال، فإن الكثير من المسنين يعانون بالفعل من ضعف صحتهم، لدرجة أنهم يعجزون عن الاضطلاع بواجباتهم العادية أو الواجبات التي تتطلبها حياتهم اليومية. بيد أن هذا العجز ليس من العوامل المترتبة على الشيخوخة، لكنه سمة من سمات ضعف الصحة بوجه عام. ولعلك تتذكر، يا سكيبيو، الضعف الذي أصاب أباك بالتبنّي، ابن بوبليوس أفريكانوس[1]. فقد كان يعاني من ضعف صحته، أو لنقل انعدام صحته أصلًا. وما لم يكن أصابه هذا الضعف لكان حقق مجدًا عظيمًا لهذا البلد، فبالإضافة إلى ما أظهره أبوه من شجاعة؛ فإنه هو نفسه كان ذا علم وفير. ولذلك؛ فإذا كان الشباب أنفسهم غير معصومين من وهن الشيخوخة، لماذا نعجب لو أصيب المسنون أحيانًا بضعف قوتهم البدنية؟.

وعلينا، يا عزيزيَّ لايليوس وسكيبيو، أن نقاوم الشيخوخة، وأن نعوض أوجه قصورها عن طريق بذل الرعاية الدائمة ومعالجة ما يترتَّب عليها من أخطاء باعتبارها مرضًا.

---

(١) كان سكيبيو الذي يتناوله هذا الحوار ابنًا بالتبنّي لبوبليوس كورنيليوس سكيبيو، ابن الشهير بوبليوس كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس.

٣٦ - ويمكننا القيام بذلك من خلال اتِّباع خطة للعيش حياة صحية، والتدرب باعتدال، وتناول الطعام والشراب بما يكفي لحفظ أجسامنا دون أن نثقل عليها. وبنفس القدر الذي نولي به العناية لأجسامنا، ينبغي أن نولي اهتمامًا أكبر لعقولنا وأمورنا الروحانية. فهذه الأمور هي مثل مصابيح الزيت التي ستخبو مع مرور الوقت إذا لم نُوَالِهَا بالتغذية. ولئن كان التدريب البدني قد يرهق الجسم، فإن النشاط الفكري يجعل العقل أكثر حدة. وحينما كان الكاتب المسرحي كايسيليوس يتحدث عن «كبار مهرِّجي المسرح الكوميدي» فقد كان يشير إلى الرجال السُّذَّج كثيري النسيان، ودائبي الكسل؛ وهي صفات لا يمكن أن تنسب عمومًا إلى الشيخوخة فقط، ولكن أيضًا إلى الأشخاص الذين يستسلمون للاسترخاء والكسل وعدم الحركة. إن الطيش والشهوة يتفشَّيان بين الشباب والكبار، ولكن ليس جميع الشباب، وإنما فقط ضعاف النفوس منهم. وهكذا أيضًا؛ فإن ما يتبدَّى عن المسنِّين من سخف نطلق عليه اسم «الخرف» هو سمة لا تخصُّ جميع المسنِّين، ولكن فقط ضعاف النفوس والإرادة.

٣٧ - وكان آبيوس كلوديوس عجوزًا وضريرًا، ومع ذلك كان رب أسرة ضمَّت أربعة أبناء أشدَّاء، وخمس بنات، وعديدًا من الخدم والمعالين. ولم يدفعه الكسل إلى الاستسلام للشيخوخة لكنه احتفظ بعقله مشدودًا كالقوس. وكان يدير بيته كحاكم قدير. وكان العبيد يخشونه، والأطفال يبجِّلونه، والجميع يُكِنُّون له كل إعزاز. وانتعشت في منزله تقاليد الأجداد وانضباطهم.

٣٨ - ولا تحظى الشيخوخة بالاحترام إلا بالدفاع عن نفسها والحفاظ على حقوقها، وعدم الرضوخ لأحد، والذود عن حوضها حتى النفس الأخير. وكما أحبذ الشاب الذي يتحلى بحكمة الشيخوخة؛ فإنني أشيد بالمسن الذي يحتفظ بنكهة الشباب. فمثل هذا الشخص قد يشيخ جسمه لكنه روحه لن تشيخ أبدًا.

إنني أعمل الآن على الجزء السابع من كتابي المعنون «الأصول»، وأجمع كل السجلات عن تاريخنا القديم، وأقوم بتحرير الخطب التي ألقيتها في مناسبات هامة[1]. كما أقوم حاليا بتحقيق منشورات في التنجيم والكهانة والقانون المدني. كما أكرِّس جُلَّ وقتي لدراسة الأدب اليوناني. ولكي أنشط ذاكرتي؛ فإنني أسير على نهج تلامذة فيثاغورث، وأراجع كل مساء كل ما قلته أو سمعته أو فعلته خلال اليوم. تلك هي تدريباتي العقلية، أو ما أسميها مراجعات العقل. ورغم أن هذه العملية ترهقني وتجعلني أتصبَّب عرقًا؛ فإنني لم أفقد كثيرًا قوتي البدنية السابقة. وأقوم أيضًا بإسداء المشورة القانونية إلى أصدقائي وكثيرًا ما أحضر اجتماعات مجلس الشيوخ حيث أقترح مواضيع للمناقشة وأدافع عمَّا أطرحه من آراء بعد إنعام النظر في القضايا. وأقوم بكل هذه الأمور ليس بقوتي البدنية؛ ولكن بقوتي العقلية. وحتى لو كان الجهد اللازم لأداء هذه الأعمال أكثر من طاقتي؛ فإنه يمكنني مع ذلك أن أستلقي على أريكتي وأفكر في الأنشطة التي أنجزتها. ولكني أعزو قدرتي على إنجازها إلى قوة طبعي. فرجل أمضى

(١) نسخة مفقودة الآن من كتاب عن تاريخ روما من بدايته حتى القرن الثاني قبل الميلاد.

حياتـه منخرطًا في الدراسـة والأنشـطة ربمـا لا يلاحـظ زحـف الشـيخوخة على شـبابه. وبـدلًا مـن ذلـك، فإنـه ينسـحب تدريجيًـا، وفي هـدوء، إلى سـنواته الأخـيرة فـلا تنطفـئ شـعلته فجـأة، لكنهـا تخبـو عـلى مـرٍّ فـترة طويلـة مـن الزمـن.

٣٩ - نتحوّل الآن إلى الاعتراض الثالث على التقدُّم في العمر؛ ألا وهو خفوت حدَّة الملذَّات الحسِّيَّة. ولكن لو كان هذا صحيحًا؛ فإنني أقول إنها حقًا جائزة مجيدة أن تحررنا الشيخوخة من أشد عيوب الشباب تدميرًا.

والآن، لتستمعا يا أنبل أصدقائي الشباب إلى هذه العبارات العتيقة التي قالها واحد من أبرز الرجال وأكثرهم تفوقًا، وهو أرخيتاس التارنتومي، الذي كرَّرها أمامي حينما كنت أخدم كجندي شاب في نفس المدينة مع كوينتوس ماكسيموس[1]. فقد قال إن الرغبة الجنسية هي أكبر لعنة صبَّتها الطبيعة على البشر. ومنها تنبع كل أهواء الشهوة التي لا يمكن التحكُّم فيها سعيًا للإشباع.

٤٠ - ومنها يأتي التآمر السري مع الأعداء وخيانة الأوطان وإقصاء الحكومات. وواقع الأمر أنه ليس هناك فعلٌ أكثر شرًا، أو عملًا أكثر خسة، لا يمكن أن يقوم به شخص تحرِّكه الشهوة؛ فالشهوة الحسية التي لا يمكن التحكم فيها يمكن أن تدفع الرجال إلى الاغتصاب والزنا وكل الموبقات الجنسية. وحيث إن الطبيعة -أو ربما بعض الآلهة- لم تمنح الرجال ما هو أسمى من الذكاء البشري؛ فإن هذه المنحة الإلهية ليس لها من عدو لدود سوى الحسية المجردة.

٤١ - وحيثما سادت الشهوة ؛ لا مكان لضبط النفس. وفي مملكة الانغماس في الملذات، لا مجال للسلوك القويم.

وبغية توضيح أفكاره، يواصل أرخيتاس حديثه قائلا: «تصوَّروا

(١) كان أرخيتاس، الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، من أتباع الفيلسوف فيثاغورث، وعالما في الرياضيات والفلك وصديقًا لأفلاطون.

شخصًا يتمتَّع بكل الملذات الحسية الممكنة، فلن يشك أحد أن شخصًا في هذا الوضع عاجز عن استخدام عقله بصورة منطقية ومعقولة. ولذلك؛ فليس هناك ما هو مدعاة للاشمئزاز والمقت أكثر من اللذة الحسية. ولو أن شخصًا تمادى فيها أكثر أو أطول ممَّا ينبغي لضاعت روحه في خضم الظلمات».

لقد أبلغني نيارخوس، الذي كان من أصدقاء روما الأشدَّاء، والذي استضافني في تانتيروم، أن أرخيتاس نقل هذه العبارات إلى جايوس بونتيوس السمناتي، أبي الرجل الذي هزم القنصلين سبيريوس بوستيومينوس وتيتوس فيتوريوس في معركة كودين فوركس[1]. وأضاف نيارخوس قائلًا إن أفلاطون الأثيني كان موجودًا واستمع إليه وهو يردِّد هذه الكلمات. وقد تحقَّقت بالفعل من هذه الواقعة واكتشفت بالفعل أن أفلاطون زار تانتيروم حينما كان لوسيوس كاميليوس وآبيوس كلوديوس قنصلَيْن[2].

٤٢ - فما الذي دعاني إلى أن أقتبس أقوال أرخيتاس؟ لقد فعلت ذلك لأقنعكم بأنه إذا لم يكْفِ العقل والحكمة لجعْلِنا نتعفَّف عن شهواتنا؛ فلنكن إذن ممتنِّين للشيخوخة؛ لأنها تنأى بنا عن الجري وراء الشهوات. فهذه المشاعر تغشى قدرتنا على الحكم السليم، وتتصارع مع عقولنا فتعمينا عن السلوك القويم في حياتنا.

لقد كانت مهمة ثقيلة على القلب أن أُقصيَ عن مجلس الشيوخ

(١) هزيمة منكرة للرومان في عام ٣٢١ قبل الميلاد.

(٢) هذا أمر مشكوك فيه لأن أفلاطون سيكون آنذاك في الثمانين من عمره (٣٤٩ قبل الميلاد).

رجلًا كان قنصلًا قبل سبع سنوات؛ وهو لوسيوس فلامينيوس، شقيق المرموق تيتوس فلامينيوس[1]. ولكن شهواته المخزية اقتضت اتخاذ هذا الإجراء. فحينما كان قنصلًا في بلاد الغال أعدم -بناء على طلب من إحدى البغايا خلال مأدبة رسمية- أحدَ السجناء الذين كانوا محبوسين بتهمة مغلَّظة. وخلال الوقت الذي كان فيه أخوه، الذي سبقني في المنصب على الفور، أفلت لوسيوس من العقوبة. ولكنَّ كلينا، فلاكوس وأنا، لم نكن لنسمح بأن تمر هذه الشهوة المشينة دون عقاب، خاصة وأن جريمته الفاضحة ضد أحد المواطنين العاديين ألحقت العار بروما.

٤٣ - وكثيرًا ما كنت أسمع من الشيوخ -الذين يقولون إنهم سمعوا ذلك من شيوخهم وهم بعد في صباهم- أن جايوس فابريسيوس اعتاد أن يتباهى برواية سمعها (حينما كان في بعثة إلى الملك بيروس)، وأنه سمع هذه الرواية من سينياس الثيسالي مستشار الملك[2]. وتقول رواية سينياس إن مواطنًا من أثينا يدَّعي الحكمة، يزعم أن كل شيء نفعله ينبغي أن يقاس بقدر ما يحققه لنا من متعة[3]. وحينما سمع مانيوس كيوريوس وتايبيريوس كورونكانيوس ذلك من فابريسيوس قالا إنهما يأملان في أن يؤمن شعب السامنيت والملك بيروس نفسه بهذه الرواية لأنه من الأيسر هزيمة الشعب الذي يستسلم للمتعة. وكان

(١) قام كاتو بذلك حينما كان مراقبًا ماليًا في عام ١٨٤ قبل الميلاد، مع رفيقه لوسيوس فاليريوس فلاكوس.

(٢) كان سينياس تلميذًا لخطيب أثينا ديموستينيس، واستعان به الملك بيروس في المفاوضات مع الرومان.

(٣) الفيلسوف أبيقور (٣٤١-٢٧٠ قبل الميلاد).

مانيوس كيوريوس صديقًا مقرَّبًا من بوبليوس ديسيوس، الذي ضحَّى بحياته من أجل بلده خلال خدمته كقنصل للمرة الرابعة[1]. وكان فابريسيوس وكورونكانيوس يعرفانه جيدًا. وكانا على اقتناع تام، كما يتبين من أسلوب حياتهما، وخاصة الفصل الأخير من حياة ديسيوس، أن هناك أهدافًا معينة في الحياة تتسم بطبيعتها بالرفعة والنبل ويتعيَّن السعي إلى تحقيقها في حد ذاتها. وكانا يعتقدان أن على كل إنسان صالح أن يتوخى تحقيق هذه الأهداف وأن يرفض الانغماس في الملذات والشهوات كنقيصة جديرة بالازدراء.

٤٤ - لماذا أستفيض في الحديث عن الملذّات؟ ذلك لأن النقص في مشاعر الشيخوخة تجاه المباهج الحسية ليس فقط مدعاة للوم والتشهير؛ لكنه حقًّا من الأمور التي تستوجب الثناء الشديد. فالشيخوخة لا تكترث بالمآدب المسرفة، والموائد المكدَّسة، وكؤوس النبيذ التي ما إن تفرغ حتى تملأ من جديد، لكنها أيضًا لا تعترف بالسُّكْر وسوء الهضم وليالي السهاد المؤرق!

ومع ذلك، فلو تعين علينا أن نقدم بعض التنازلات لمبدأ اللذة، ما دام من المتعذر مقاومة إغراءاته؛ فهو الذي وصفه أفلاطون بلغته العبقرية بأنه «طُعْم الشر» الذي يجذب الرجال كما تُجذب السمكة إلى طُعمها[2]. أعترف بأنه ينبغي لنا أن نسمح للشيخوخة، رغم افتقارها إلى الموائد الباهظة، بالمباهج التي توفِّرها موائد العشاء

(١) توفي بوبليوس ديسيوس موس وهو يقود الجنود الرومان في معركة سينتينوم (٢٩٥ قبل الميلاد).

(٢) أفلاطون (محاورة «طيماوس» ٦٩د).

المعتدلـة. فحينـما كنـت طفـلًا، كثـيرًا مـا رأيـت جايـوس دويليـوس، ابـن ماركـوس، الـذي كان أول مـن هـزم قرطـاج في معركـة بحريـة، وهـو عائـد إلى منزلـه مـن مـآدب العشـاء[١]. وكان يحـب دائمًـا أن يكـون محاطًـا في هـذه الرحـلات الصغـيرة بحامـلي المشـاعل وعـازف عـلى النـاي. ولم يكـن أي مـن المواطنـين العاديـين قـد تـصرَّف عـلى هـذا النحـو مـن قبـل، لكـن سـمعته المجيـدة أعطتـه هـذا الحـق.

٤٥ - ولكنـي لمـاذا أتكلَّـم عـن الآخريـن؟ فلأعُـدْ إلى الحديـث عـن نفسي. وبدايـةً، فقـد كان هنـاك دائمًـا رفقـائي في النـادي. فحينـما كنـت مراقبًـا ماليًّـا، عـرض عـليَّ ذلـك في رومـا تيمنًـا بـالأم الكـبرى وديانتهـا المنبثقـة مـن جبـل إدنـا[٢]. وقـد اعتـدت أن أتنـاول العشـاء بانتظـام مـع هـؤلاء الرفـاق بشـكل متواضـع، وإن كان بـروح الشـباب التـي كانـت سـائدة آنـذاك رغـم اندثارهـا عـلى مـر الزمـن. ولكـن مباهـج الطعـام لم تكـن هـي التـي راقـت لي حينئـذ بقـدر مـا راق لي لقـاء الأصدقـاء والتحـاور معهـم. لقـد كان الاسـم الـذي يطلقـه أسـلافنا عـلى تنـاول العشـاء مـع الأصدقـاء لفظـة convivium ؛ أي «التعايـش معًـا؛ لأن هـذه التسـمية تعـبّر عـن جوهـر هـذا اللقـاء الاجتماعـي. وهـي صفـة أكـثر ثـراءً وتعبـيرًا عـن التجربـة اليونانيـة مـن عبـارات «تنـاول الـشراب معًـا» أو «تنـاول الطعـام معـا»، وهـما التعبـيران اللـذان يؤكِّـدان عـلى الأمـر

(١) هزم دويليوس القرطاجيين وأبعدهم عن ميلاي في صقلية أثناء الحرب البونية الأولى (٢٦٠ قبل الميلاد).

(٢) الإشـارة إلى ربـة الـشرق سـيبيل، التـي تركـزت عبادتهـا قـرب جبـل إدنـا في آسـيا الصغـرى والتـي سـادت في رومـا حينـما كان كاتـو مراقبًـا ماليًـا (٢٠٤ قبـل الميـلاد).

الأقل أهمية في اللقاء وليس على ما هو أكثر قيمة[1].

٤٦ - ومن وجهة نظري الشخصية، لأنني أحب المحادثة؛ فإنني أحب حفلات العشاء التي تبدأ في وقت مبكِّر من اليوم. ففي هذه التجمعات، أتحدَّث ليس فقط مع معاصريّ -الذين لم يبق كثير منهم على قيد الحياة- ولكن أيضًا معكم ومع أصدقائكم من الشباب. وإنني أيضًا بالغ الامتنان للشيخوخة لأنها زادت ابتهاجي بالمحادثة في حين قلَّصت رغبتي في الطعام والشراب. ولكن إذا كان أحد من أصدقائي الأكبر سنًّا يستمتع بهذه الأشياء -ولا يَظُنَنَّ أحدٌ أنني أعلنت الحرب على الملذَّات إذ أن الطبيعة تسمح بقدر معين منها- فلتدَعُوني أقول إنه لا سبب لديَّ في أن تحرم الشيخوخة من هذه المتعة.

إنني أجلُّ كثيرًا ما اعتاد عليه أسلافنا من تعيين قائد للمأدبة في التجمعات الاجتماعية واستهلال المحادثة على رأس المائدة حينما يقدَّم النبيذ. وأحب أيضا كؤوس النبيذ كما وصفها زينوفون في الندوة، قائلًا: كؤوس صغيرة ومترعة كما لو كانت مملوءة بالندى، باردة في الصيف، وفي الشتاء دافئة، بفعل سطوع الشمس أو النار الموقدة[2]. وحتى حينما أكون بين السابيين البسطاء، كثيرًا ما أغشى هذه التجمعات. وحينما أكون في منزلي مع جيراني، أنضم إليهم كل يوم لتناول إحدى الوجبات حيث نتجاذب أطراف الحديث طيلة الليل في شتى الأمور.

٤٧ - ولكن بعض الناس سيشيرون بطبيعة الحال إلى أن المسنين

(١) يترجم شيشرون هنا اللفظتين اللتين تعبرّان عن مفهوم الندوة (Symposium) و (Syndeipnon).

(٢) زينوفون، الندوة، ٢-٢٦.

ليس لهم من القوة ما للشباب كي يتحملوا دغدغة مشاعرهم. وهذا صحيح، ولكنهم أيضًا لا يتلهفون على ذلك ولن تكون لك مشكلة مع شيء لا رغبة لك فيه. وحينما كان سوفوكليس شيخًا بالفعل ردَّ ردًّا قويًا على شخص سأله عما إذا كان يستمتع بممارسة الجنس؛ فقد كان ردُّه: «يا إلهي، كلَّا! فلقد كان من دواعي سعادتي أنني تخلصت من عبودية هذا السيد المتوحش»[1].

أما بالنسبة إلى الذين يتوقون لهذه الأشياء، فربما يكون عدم الحصول عليها مثارَ إزعاج أو ضيق. ولكن إذا حصلت على كفايتك من الجنس وأشبعت كل رغباتك؛ فإن الافتقار إليها سيكون أفضل من التمسك بها. فأنت إن لم تشتهِ شيئًا؛ لن تفتقده. وهذا هو ما يجعلني أقول إن انعدام الرغبة مدعاة للسرور الكامل.

٤٨ - ولكن مع كفالة أن يتمتع الشباب بملذات الجسد أكثر من المسنين، أود أن أؤكد على نقطتين. أولًا، وكما سبق أن قلت، فإن هذه الأنواع من الملذّات لا تعني الكثير. وثانيًا، فحتى وإن كانت الشيخوخة لا تغدق في توفير هذه الملذات؛ فإنها لا تفتقر إليها كليًّة. وكما كان أمبيفيوس توربيو يسلِّي روّاده أمام المسرح أكثر مما يسليهم في المقاعد الخلفية، فقد قدَّم لهؤلاء الذين يجلسون في المؤخرة عرضًا طيبًا كذلك[2]. وعلى نفس المنوال، فإن الشباب ربما يتمتعون بالجنس أكثر من المسنين، ولكن المسنين يمكنهم مع ذلك أن يستمتعوا به بما

---

(١) أفلاطون، الجمهورية ٣٢٩ ب.

(٢)ممثل ومنتج كوميديات تيرنتيوس في القرن الثاني قبل الميلاد.

فيـه الكفايـة مـن خـلال اسـترجاع هـذه الملـذات عـن بعـد.

٤٩ - فكـم هـو رائـع أن تهـدأ الـروح بعـد طـول كفـاح مـع الشـهوة فتنتهـي هـذه المعـارك وتعـود الـروح إلى مأواهـا. فليـس هنـاك رضى يمكـن أن يحصـل عليـه المـرء في الحيـاة أعظـم مـن شـيخوخة هادئـة يكرِّسـها للمعرفـة والتعلُّـم. ولقـد تعـوَّدت، يـا سـكيبيو، أن أرى صديـق أبيـك، جايـوس جالـوس، وهـو يقـوم بعمليـات القيـاس المتعلقـة بالسـموات والأرض. ولكـم أدهشـته شـمس الصبـاح وهـو يعمـل عـلى خرائـط سَـهِرَ الليـل في إعدادهـا. ولكـم أدركـه الليـل وهـو يحـاول الانتهـاء مـن مهـامَّ بدأهـا في الفجـر. وكان سـعيدًا بمـا يحدثنـا عنـه مـن كسـوف الشـمس وخسـوف القمـر قبـل وقـوع أي منهـما!

٥٠ - ودعونـا لا ننـسى الآخريـن الذيـن شـغلوا أنفسـهم بأمـور أيـسر لا تتطلـب جهـدًا كبيرًا. فهـا هـو نايفـوس سـعيدٌ بكتابـة مؤلَّفـه عـن الحـرب البونيـة، مثلـما سَـعِدَ بلاوتـوس بمسرحيتـه الهمجـي والخدعـة[1]. ولقـد شـاهدت بنفـسي ليفيـوس أندرونيكـوس وهـو في شـيخوخته[2]. وقـد ألَّـف مسرحيـة قبـل أن أولـد بسـت سـنوات - حينـما كان سـنتو وتوديناتـوس قنصلَـيْن - ومـع ذلـك ظلَّ عـلى قيـد الحيـاة إلى أن أصبحـت شـابًا يافعًا[3]. ولا أريـد أن أكـرِّر أمثلـةً مثـل بوليـوس ليسـينيوس كراسـوس الـذي كان ناشـطًا في الشـؤون الدينيـة والقانـون المـدني، أو بوبليـوس سـكيبيو،

(١)بلاوتوس (أوائل القرن الثاني قبل الميلاد) كان أحد أوائل أنجح كتَّاب الكوميديا الرومان.

(٢) ليفيوس أندرونيكوس (تقريبًا ٢٨٠ - ٢٠٠ قبل الميلاد) كان أحد العبيد اليونانيين، وقام بترجمة إلياذة هوميروس إلى اللاتينية وأصبح من أهم كتَّاب المسرحية الرومان.

(٣) كان جايوس كلوديوس سنتو وماركوس سيمبرونيوس قنصلين سنة ٢٤٠ قبل الميلاد.

الذي انتُخب رئيسًا للأساقفة منذ بضعة أيام فقط[1]. ومع ذلك، فها أنا أرى كل هؤلاء الرجال لا يزالون متحمسين لما يقومون به بعد أن بلغوا سن الشيخوخة. وكان هناك أيضًا ماركوس سذيغوس، الذي وصفه كان إينيوس محقًّا في وصفه بأنه «لب الإقناع»[2]. ولقد سمعته بنفسي يتحدث بحماسة فائقة رغم أنه كان في شيخوخته.

كيف يمكن لأي شخص أن يقارن ملذات المآدب أو الألعاب الرياضية أو المواخير بما تمتع به هؤلاء العظام؟ لقد كان لهم شغفٌ بالتعلُّم، وهو شغف ينمو ويتجدد مع العقلاء والمتعلمين على مر السنين. وهنا تصدق مقولة صولون التي اقتبستُها، والتي قال فيها إنه يزداد علمًا كلما تقدَّم به العمر يومًا بعد يوم. ويقينًا، ليست هناك متعة تفوق متعة العقل.

(١) بوبليوس كورنيليوس سكيبيو ناسيكا كوركولوم، كان قنصلاً في ١٦٢ و ١٥٥ قبل الميلاد وعماً بالتبنّي لسكيبيو الوارد ذكره في هذا الحوار.

(٢) كان سذيغوس قنصلاً في عام ٢٠٤ قبل الميلاد.

٥١ - وإذ نتحدث الآن عن مباهج الحياة، دعوني أحدثكم الآن عن الزراعة التي تمدني شخصيًا باستمتاع عظيم. فمباهج الزراعة لا تخبو أبدًا بالتقدم في العمر؛ بل إنها تبدو لي الأنسب لحياة رجل حكيم. إنني أشبّه مباهج الزراعة بحساب مصرفي تُمثِّل فيه الأرض المصرفَ الذي لا يرد أبدًا صكًّا بالسحب، ودائمًا يردُّ الإيداع الأصليَّ مصحوبًا بالفائدة، حتى وإن لم يحل موعدها.

وما يبهجني في أمر الزراعة ليس فقط ثمار الأرض ولكن ما تتمتع به الأرض نفسها من قوة وطبيعة. فهي تستقبل الحبوب التي يتم غرسها في رحمها الرطب المهيَّأ لاستقبالها، وتظل هذه البذور مختفية لبعض الوقت، ومن هنا جاء معنى الحرث[1]. وحينما تشعر البذور بالدفء المتولِّد عن الرطوبة تنمو براعمها الخضراء. وبدعم من جذرها الليفي تنمو البذرة منتصبة على ساقها الذي تشكل حوله سياجًا يحميها من أذى الطيور العابرة.

٥٢ - ما كان أجدر بي أن أشير إلى زراعة الكروم؛ بداياتها، وغرسها، ونموها. ولكن يتوجَّب عليَّ أن أبلغكم أن العناية بالكروم هي المتعة التي أجدِّد بها نشاط شيخوختي. ويمكنني أن أقول لكم ببساطة إنها متعة لا أَمَلُّها. ولن أركِّز هنا على القوة الكامنة التي تتمتع بها جميع الأشياء التي تجود بها الأرض؛ فكيف تتحوَّل بذور التين أو العنب الدقيقة، أو بذور أي نبات، إلى جذوع قوية وأغصان باسقة؟. هلاَّ فكرتما فقط فيما يغرس من براعم وفروع الأشجار ونبتات

(١)يقصد شيشرون اللفظة اللاتينية occa والتي تعني عَزْقَ الأرض أو حرثها.

الزهـور؟ أليـس في ذلـك كافيًـا لـكي يثـير في المـرء كل آيـات الإعجـاب؟. إن الكـروم بطبيعتهـا تحـب التمـدُّد أرضًـا، لكـن إن دعَّمْتَهـا سـتمدُّ تعريشـاتها كأنهـا الأيـادي المرفوعـة إلى السـماء. وسـوف تنحـرف وتـدور في كل اتجـاه، إلى أن يدركهـا سـكين المـزارع الـذي يقلِّمهـا حتـى لا يجـفَّ عودهـا وتنتـشر بغـزارة.

٥٣ - ومـع قـدوم الربيـع، تتحـول التعريشـات إلى براعـم ثـم إلى أعنـاب، تكـون مُـرَّةَ الطعـم في البدايـة، لكنهـا سرعـان مـا تصبـح حلـوة المـذاق بفعـل رطوبـة الأرض وحـرارة الشـمس، وقـد لفَّتهـا الأوراق لـكي تعطيهـا شـحنة معتدلـة مـن الـدفء وتبعـد عنهـا أشـعة الشـمس الحارقـة. فـأي شيء عسـاه أن يكـون أكـثر إغـراء للتـذوق وأكـثر مـسرَّة للناظريـن؟

والآن، دعـوني أقـول لكـم إنهـا ليسـت الكرمـة في حـد ذاتهـا هـي سر بهجتـي، كـما ذكـرت مـن قبـل، ولكـن مـا أبهجنـي هـو زراعتهـا ومـا كشـفت عنـه مـن طبيعـة. تمعَّنـا في صفـوف الأوتـاد وفي شـواشي الكرمـة ترتبـط مـع تعريشـاتها وسـعي الأغصـان إلى الصعـود وامتـدادات الكرمـة وتقليـم بعـض الأغصـان مـع تـرك غيرهـا تنمـو كـما يحلـو لهـا.

لمـاذا ينبغـي أن أتحـدَّث الآن عـن الـري، وبنـاء القنـوات، وحـرث الأرض لجعلهـا أكـثر إنتاجيـة؟ ولمـاذا ينبغـي لي أن أناقـش هنـا جـدوى تسـميد الأرض؟ يمكنكـم أن تقـرؤوا عـن كل ذلـك في كتـابي عـن الزراعـة[1].

(١) كتـاب كاتـو عـن الزراعـة متـاح وهـو كتـاب رائـع يقـدم رؤيـة ليـس فقـط عـن فنـون الزراعـة القديمـة ولكـن أيضًـا عـن بدايـات المجتمـع الرومـاني.

٥٤ - وحتى هسيود العالِم لا يقول شيئًا عن هذا الموضوع، على الرغم من أنه كتب عن الزراعة[1]. ولكن هوميروس، الذي أعتقد أنه عاش قبل ذلك بأجيال كثيرة، يشير بالفعل إلى لايرتس، والد أوديسيوس وهو يحاول التخفيف من أحزانه عن ابنه الغائب بالاستغراق في حرث أرضه وتسميدها[2].

ويستمتع الفلاح أيضًا بحقوله ومروجه وكرماته وغاباته وحدائقه وبساتينه ومراعي ماشيته وطنين النحل في مناحله، وبكل أنواع الزهور. كما يجد متعة في الزراعة والتطعيم الذي يعتبر من أذكى العمليات في الزراعة.

٥٥ - وبوسعي أن أسترسل وأسترسل في الحديث عن مباهج الزراعة رغم أنني أفضت في الحديث عنها بالفعل. ولكن لتعذراني إن مضيت في الحديث عنها؛ لأن حماستي للحياة الريفية تدفعني إلى ذلك. وفضلًا عن ذلك، فالشيخوخة ثرثارة بطبعها، ولا أريد أن أعفيها من كل عيوبها.

إنهم يقولون إن مانيوس كيوريوس أمضى بقية حياته في الزراعة بعد انتصاره على السامنيت والسابيين وبيروس الإبيري. وحينما أمعن النظر إلى بيته الريفي، الذي لا يبعد عن بيتي كثيرًا، لا يسعني إلا أن

(١) في كتابه الأعمال والأيام.

(٢) يقول معظم الدارسين المحدثين بأن الشاعرين اليونانيين هوميروس وهسيود كانا معاصرين كل منهما للآخر على وجه التقريب (تقريبا، سنة ٧٠٠ قبل الميلاد). أما عن لايرتس، فلا يقول عنه هوميروس (في الأوديسة، ٢٤-٢٢٧) سوى أنه كان يغرس النباتات في كرمته، ولم يقل إنه كان يقوم بتسميدها.

أعجب أيما إعجاب ببساطة الرجل وانضباط الروح الذي تميز بها عصره.

٥٦ - وذات مرة، بينما كان يجلس إلى مدفأته ، أحضر له بعض السامنيت هدية ذهبية كبيرة، لكنه رفضها قائلًا إن ذلك سيقلّل من قيمة ما حققه من انتصار عليهم. إن رجلًا بهذه الروح العظيمة لا بُدَّ وأنه كان يتمتع بسعادة بالغة في شيخوخته.

ولكن حتى لا يجرفني التيار بعيدًا عن موضوعي، دعوني أعود إلى حديثي عن الفلاحين. ففي سالف الأيام، كان أعضاء مجلس الشيوخ (والذين يحمل اسمهم ما يشير إلى تقدمهم في العمر) من الفلاحين، إذا صدقت الرواية التي تقول بأن لوسيوس كوينكتيوس سينسيناتوس كان وراء محراثه حينما استدعاه الحاكم. وبناء على أمر من سينسيناتوس، فإن جايوس سيرفيليوس أهالا، الذي كان قائد فرسانه، ألقى القبض على سبيريوس مايليوس وأمر بإعدامه لمحاولته تنصيب نفسه ملكًا[1]. وقد استدعي كيوريوس وغيره من حكماء روما من قلب مزارعهم لكي يتوجهوا إلى مجلس الشيوخ. ولهذا فقد أطلق على الرُّسل الذين تم إرسالهم إليهم (باللاتينية) viatores أو «المسافرون».

ومن المؤكَّد أن مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا يجدون متعة في التعامل مع الأرض كانوا يفتقرون إلى السعادة في شيخوختهم. إنني أعتقد شخصيًّا أنه لا يمكن أن يكون هناك أسعد من الفلاح، ليس

(١) يحكى أن لوسيوس كوينكتيوس سينسيناتوس منح سلطة طارئة مؤقتة ليكون حاكماً في ٤٥٨ قبل الميلاد لكي يهزم قبيلة إيكي ومرة أخرى في ٤٣٩ قبل الميلاد لكي يحول دون استيلاء سبيريوس على السلطة في روما بصورة غير شرعية. وكان منصب قائد الفرسان في روما هو المنصب التالي في القيادة للحاكم نفسه.

فقط بسبب ما يقدمه من خدمات تفيد الجنس البشري كله؛ ولكن بسبب كل ما سبق أن أشرت إليه من مباهج، ولوفرة جميع الأشياء اللازمة لعبادة الآلهة ودوام البشرية.

وإنني إذ ألاحظ الانشغال الشديد من جانب بعض الناس بالسلع المادية، آمل أن يعيدهم حديثي عن الوفرة إلى الاعتراف بالنعم. فذلك الفلاح الذي يتطلَّع إلى الأمام ويكدُّ كدًّا على الدوام، لديه غرف الخزين والأقبية المملوءة بالنبيذ والزيت والمؤن. ومزرعته كلها تفوح بأجواء الوفرة والغرف التي تحمل الخير الكثير من لحوم الضأن والماعز والدجاج واللبن والجبن والعسل. وبعد ذلك تأتي حديقته الخاصة التي ينعم فيها بمراقبة الطيور وصيدها.

٥٧ - لماذا أسترسل في الحديث عن خضرة المروج واصطفاف الأشجار، وعن كروم الأعناب وبساتين الزيتون؟ إنني، عوضًا عن ذلك، سأتوخّى الإيجاز. ودعوني أقول إنه ليس هناك ما هو أكثر وفرةً ومنفعةً وجمالًا من مزرعة تم صونها بعناية. فالشيخوخة لا تعوق التمتع بمثل هذه المزرعة؛ بل إنها تتضاعف من التمتُّع بها. ففي أي مكان آخر من العالم يمكن لعجوز أن يتحصل على دفء أفضل سواء من الشمس الساطعة أو من المدفأة؟ بل وأين له أن يجد في أوقات الصيف مكانًا أكثر صحة وظلًا ومزوّدًا بالمياه الجارية؟

٥٨ - فليتمتع الآخرون بأسلحتهم وجيادهم ورماحهم ومبارزاتهم، وليهنؤوا بحفلات الرقص ومسابقات العوم وسباقات الجري. ولتتركوا للمسنين أمثالي نَرْدَهُم وأوجاع مفاصلهم، أو جرِّدونا منهم أيضًا إن

شئتم، فشيخوختنا ستكون أسعد بدونهم.

٥٩ - إن كتابات زينوفون ثرية بالمعلومات حول الكثير من الموضوعات، وأوصيكما بقراءتها بإمعان، وإن كنت أدرك أنكما اطّلعتما عليها. فأي مديح عظيم يوجهه زينوفون إلى الزراعة في كتابه عن إدارة الممتلكات!. ولكي أبيِّنَ لكما كيف أنه اعتبر الزراعة من أسمى الشؤون الملكية؛ دعوني أحدثكما عن حكاية في كتابه جعل سقراط يرويها في محادثته مع كريتوبولوس[1].

فقد كان قورش الأصغر أميرًا فارسيًّا معروفًا بذكائه الشديد والمجد العظيم الذي اتسمت به فترة حكمه، وقد زاره في ساردیس ليساندر أميرال اسبرطه، وكان رجلًا فاضلًا[2]. وقد جاء إلى ساردیس محمَّلًا بالهدايا التي حصل عليها من حلفائه. وكان من بين المجاملات التي قام بها قورش الأصغر تجاه ضيفه أنه صحبه في جولة إلى إحدى الحدائق بديعة النظيم. وأجزل ليساندر للأمير بعبارات الثناء على الأشجار الشاهقة التي تنمو في مجموعات تتشكَّل كلٌّ منها من خمس أشجار، وعلى التربة النظيفة المحروثة بعناية شديدة، وعلى الروائح الجميلة التي كانت تفوح من زهور الحديقة. ثم أضاف الضيف

(١) Oeconomicus ٤-٢٠-٢٥. كان زينوفون، مثل أفلاطون، من تلاميذ سقراط واستعان به كسارد لأفكاره في العديد من أعماله.

(٢) قورش الأصغر هو ابن الملك داريوس الثاني. وقد قتل في عام ٤٠١ قبل الميلاد في معركة مع أخيه على عرش والده - وقد حارب زينوفون في هذه المعركة كأحد الجنود المرتزقة. أما ليساندر (الذي توفي في العام ٥٩٥ قبل الميلاد) فكان جنرالًا إسبرطيًا ممن عملوا مع فارس لهزيمة أثينا في الحرب البيلوبونيسية. وكانت ساردیس عاصمة فارسية في ليديا غربي آسيا الصغرى.

الإسبرطي قائلا إنه لم يتأثر فقط بالجهد الفائق الذي بُذل في العناية بالحديقة؛ ولكن بالذكاء الشديد الذي تم به ترتيب كل شيء. فقال قورش: «إنه أنا الذي خطَّط لكل ذلك. لقد خططت لهذه الصفوف من الأشجار التي زرعت الكثير منها بيدي هاتين، أما الترتيب فهو من صنعي». وبعد أن حدَّق ليساندر في رداء قورش القرمزي اللون وملابسه الفارسية المرصَّعة بالذهب والأحجار الكريمة، قال موجِّهًا كلامه إلى قورش: «إن الناس محقُّون يا قورش في القول بأنك سعيد. إنك حقًّا لست محظوظًا فقط؛ لكنك أيضا رجل فاضل».

٦٠ - إن جميع المسنِّين قادرون على الاستمتاع بالثروة التي يمكن أن تتأتَّى عن الزراعة. وبوسعنا أن نواصل زراعة التربة حتى آخر أيامنا. فقد استمعنا، على سبيل المثال، إلى ما يروى عن أن فاليريوس كورفينوس واصل العمل في مزرعته حتى سن متقدمة، ولذلك فقد عاش حتى بلغ من العمر مائة عام[1]. ولقد فصلت فترة ستة وأربعين عامًا بين فترتَيْ عمله كقنصل للمرة الأولى والمرة السادسة؛ وهي فترة تعادل ما اعتبره أجدادنا حياة شخص راشد حتى بداية شيخوخته. ولقد كان في السنوات الأخيرة أكثر سعادة من تلك التي تمتع فيها بنفوذ أكبر ويتحمَّل قدرًا أقل من المسؤوليات.

(١) كان ماركوس فاليريوس كورفينوس قنصلًا رومانيًا ذائع الصيت لست مرات في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

٦١ - يشكل الاحترام تاج المجد على جبين الشيخوخة. فقد نال لوسيوس كايسيليوس ميتيللوس احترامًا عظيمًا، وكذلك أولوس أتيليوس كايتينوس [١] الذي كتب على شاهد قبره:

«تقول جميع الأمم إن هذا الرجل كان الأنبل في وطنه».

ولكنكم تعرفون بقية ما كتب على الشاهد فهي محفورة عليه. لقد كان هذا الاعتراف العالمي بالشمائل الفاضلة لهذا الرجل شهادة على ما كان له من تأثير. ولقد رأينا ما كان يولى من تكريم في العصور القديمة لكبير الكهنة بوبليوس كراسوس وخليفته ماركوس لبيدوس [٢]. ما كان أعظم هؤلاء الرجال! وماذا أقول عن باولوس وأفريكانوس ومكسيموس الذين سبق أن تحدثت عنهم؟ لقد كان هؤلاء الرجال ينضحون بالقوة والسلطان، ليس فقط وهم يخطبون؛ ولكن حتى في حركتهم وسكونهم. من المؤكد أن ما تلقاه الشيخوخة من احترام يتوّجه التكريم العام هو أكثر إشباعًا للنفس من جميع المتع الحسية للشباب.

٦٢ - ولكن أرجو ألا يغيب عن بالكما أنني في هذه المناقشة أمتدح الشيخوخة التي يترسّخ أساسها في الشباب. وبالتالي، وكما قلت ذات مرة بموافقة كل من سمعوني؛ فإن الشيخوخة التي تحمي نفسها بالكلمات فقط هي شيخوخة غير مرغوب فيها. ولا يمكن للتجاعيد والشعر الأشيب أن يبعثا فجأة على الاحترام. وما لم يحسن المرء قضاء

(١) كان كايتينيوس قنصلاً في ٢٨٥ و ٢٥٤ قبل الميلاد، وكان أحد أبطال الحرب البونية الأولى.
(٢) كان ماركوس أميليوس لبيدوس قنصلاً في ١٨٧ و ١٧٥ قبل الميلاد.

السنوات الأولى من العمر فلن يتمكن في شيخوخته من قطف ثمار الإعجاب.

٦٣ - وحينما يحدث ذلك في نهاية المطاف، قد لا تبدو دلائل الاحترام مهمة في بداية الأمر، بل إنها قد تبدو زهيدة ومتواضعة؛ من قبيل الزيارات الصباحية، أو طلبات اللقاء، أو قيام الناس بإفساح الطريق لك، أو النهوض من جلوسهم عند اقترابك منهم، أو مرافقتك عند الذهاب إلى المنصة أو العودة منها، أو التماس النصح منك. فإننا نحن الرومان، ككل الأمم المهذبة، نمارس كل ضروب هذه الكياسة بشيء من التدقيق.

ويقال إن ليساندر الإسبرطي الذي كنت أتحدث عنه منذ قليل اعتاد القول بأن مدينته هي أفضل مكان للمسنين؛ حيث أنها تعاملهم بمزيد من الاحترام والتميز عن أي مكان آخر. ويحكى أن أحد المسنين كان في أثينا ذات مرة وذهب إلى مسرح مزدحم كي يشاهد إحدى المسرحيات، لكن أي أحد من أبناء المدينة لم يعرض عليه مقعده. بيد أنه حينما توجه إلى القسم المحجوز للضيوف الإسبرطيين، نهض كل منهم عارضًا عليه الجلوس.

٦٤ - ولقيت هذه الإيماءة تهليلًا قويًا من كل الحاضرين؛ مما دعا أحد الإسبرطيين إلى القول: «إن هؤلاء القوم من أبناء أثينا يعرفون حقًا ما يعنيه حسن السلوك، لكنهم لا يمارسون ذلك».

وهناك الكثير من العادات الجديرة بالإعجاب التي يتَّبعها مجلس المنجِّمين الخاص بنا، ولكن هناك واحدة على وجه الخصوص ذات صلة

بموضوع حديثنا وهي التي تعطي الأولوية في الحديث حسب السن. فالسن له الأولوية على المنصب الرسمي؛ بل حتى على الأشخاص الذين يشغلون أعلى المناصب في القضاء. فأي ملذات حسية يمكن مقارنتها بالتأثير الذي تحدثه مزايا الشيخوخة؟ ويبدو لي أن هؤلاء الذين أحسنوا الاستفادة من هذه المزايا هم كالممثلين الذين أحسنوا القيام بدورهم حتى النهاية في دراما الحياة، على عكس غيرهم من الممثلين غير الأكفاء الذين ينهارون في الفصل الأخير.

٦٥ - ولكن سيقول البعض إن المسنِّين أشخاص يتَّسمون بالتجهُّم والكآبة والقلق وسوء المزاج، وأنهم من الصعب إرضاؤهم. وحينما نمعن النظر في الأمر سيتبيَّن أن بعضهم أيضا بخلاء. ولكن هذه كلها عيوب في الشخصية، وليست من عيوب الشيخوخة. وبالإضافة إلى ذلك فإن التجهُّم وغيره من العيوب التي أشرت إليها قد يكون لها ما يبررها لدى المسنِّين وإن لم يكن مبررًا جيِّدًا. وعلى أية حال؛ فإن المسنين يتصوَّرون أنهم مدعاة للتجاهل والإهمال والسخرية. ومن المسلَّم به أن الجسد الهش يكون سهل التأثُّر. لكن جميع هذه المشاكل المتعلقة بالشيخوخة يمكن تيسيرها والتخفيف من أثرها من خلال الشخصية اللبقة والمستنيرة. وبمقدورنا أن نجد مثل هذه الشخصية في الحياة الفعلية وفي المسرح كما في مسرحية تيرنتيوس « الأخوَان»[1]. فلقد كان أحد الأخوين كريهًا لا يُطاق، في حين كان الآخر محبوبًا تمامًا. وحقيقة الأمر هي أن شخصية المرء، شأنها شأن

(١) عمل مسرحي لمؤلفه ترنتيوس من القرن الثاني قبل الميلاد.

النبيـذ؛ لا تكتسـب طعمهـا، بالـضرورة، بالتقـادم. فالتقشُّـف في الشـيخوخة ملائـم تمامًـا، لكنـه ككل شيء آخـر يجـب أن يتَّسـم بالاعتـدال. وحـدة الطبـع لم تكـن أبـدًا مـن الصفـات الفاضلـة. أمـا عـن البخـل في الشـيخوخة فإننـي لا أفهـم مـا يمكـن أن يخدمـه مـن غـرض.

٦٦ - فـما هـو أكـثر مدعـاة للسـخرية مـن أن يضيـف المسـافر إلى حقائبـه المزيـد في نهايـة الرحلـة؟

علينا أخيرًا أن ننظر في الاعتراض الرابع على تقدُّم العمر؛ وهو اعتراض يبدو أن المقصود به إثارة القلق والحزن لرجل في مثل سني. إنني أتحدث عن دنوّ الموت. وحينما يتقدَّم العمر بالمرء، فليس هناك من شكٍّ في أن الموت ليس ببعيد.

ما أتعسه حقًّا ذلك الرجل الذي لم يدرك عبر حياته الطويلة أن الموت ليس بالأمر الذي يتعيَّن عليه أن يخشاه. فالموت إما أن يدمِّر الروح البشرية تمامًا، وهو في هذه الحالة أمر لا يستحق الاهتمام؛ وإما أنه يأخذ الروح إلى مكان تخلد فيه إلى الأبد، وهو في هذه الحالة أمر مرغوب فيه. وليس هناك احتمال ثالث.

٦٧ - فلماذا يتعيَّن عليَّ إذًا أن أخاف، ما دامت الحياة بعد الموت سيّان؟

وفضلًا عن ذلك، فمن حتى من بين الشباب تبلغ به الحماقة حدًّا يجعله واثقًا تمامًا من أنه سيظل على قيد الحياة عند حلول المساء؟ فالشباب هم أكثر عرضة للتعرُّض للموت من الكبار جرَّاء الحوادث. كما أنهم أكثر عرضة للإصابة بالأمراض وأكثر استعصاءً على الشفاء، ولذلك فإن عددًا قليلًا جدًّا من الشباب هم الذين يصلون إلى سن الشيخوخة. وما لم يكن قد توفي الكثير منهم؛ لكان لدينا وفرة من الأشخاص الذين يتمتَّعون بالحكمة والفطنة. فالتعقُّل والحكمة هما من شيم الكبار. وما لم يكن هناك مسنُّون ما قامت للدول قائمة.

ولكن دعوني الآن أعود إلى موضوع الاقتراب من الموت. لماذا

تقولان إنه أمر يتعلّق بالشيخوخة في حين أنه أمر شائع بين الشباب؟

٦٨ - ولقد شعرت نفسي بذلك بمرارة حينما فقدت ابني العزيز، مثلما حدث معك يا سكيبيو عند موت أخويك وهما في عز الشباب ويتوقان إلى المجد. ولكنكما قد تدفعان بأن بمقدور الشباب أن يأملوا في العيش حياة أطول على عكس المسنِّين. لكن مثل هذا الأمل تُعْوِزُه الحكمة، فما هو أكثر حماقة من أن تخلط بين ما هو أمر مؤكد وما هو غير مؤكد، أو قل بين ما هو زائف وما هو حقيقي؟ ويمكنك القول أيضًا إن رجلًا في شيخوخته ليس أمامه على الإطلاق ما يأمل فيه. لكنه في واقع الأمر يمتلك شيئًا أعزَّ ممَّا يمتلكه شخص في شرخ الشباب. وكل ما يتمنَّاه الشباب بَلَغَتْهُ الشيخوخة. فالشاب يتمنَّى طولَ العمر؛ وهو ما يتمتَّع به الشخص المسنُّ بالفعل.

٦٩ - ولكن، بحقِّ الآلهة، ما الذي عساه أن يكتب له الدوام في حياة البشر؟ دعنا نفترض جدلًا إمكانية العيش أطول حياة ممكنة ونأمل أن نعيش العمر الذي عاشه الملك تارتيسوس الذي قرأت عنه مؤخَّرًا؛ ضرب من المعمَّرين الأرغانثونيين الذي ظلُّوا في الحكم ثمانين عامًا وعاشوا حتى سن المائة والعشرين[١]. ولكن بالنسبة إليَّ، فإن أي شيء بلا نهاية سيبدو أطول من اللازم. لأنه عندما تحين النهاية، سيصبح كل ما قبلها نسيًا منسيًّا. وكل ما سيتبقَّى بعد ذلك هو الأفعال الطيبة والقيمة التي قدمتها في حياتك. ولئن مرَّت الساعات والأيام والشهور والسنين؛ فإن الماضي لا يعود، والمستقبل لا نعلمه.

(١) غاديس في مملكة تارتيسوس جنوب غربي إسبانيا. القصة مذكورة في هيرودوت أولا- ١٦٣.

وعلينا أن نرضى بأي وقت مقسوم لنا أن نعيشه.

٧٠ - ولا ينبغي لأي ممثل أن يظل على المسرح طوال المسرحية وإنما يكفي أن يظهر في الفصول المناسبة. وبالمثل؛ فإنه لا حاجة لأي رجل حكيم أن يبقى على مسرح هذه الحياة إلى أن يحظى بتهليل الجمهور في النهاية. ولئن كان الوقت المخصَّص لحياتنا قصيراً؛ إلا أنه كافٍ لأن نعيش حياة شريفة ولائقة. ولو حدث بمحض الصدفة أننا استمتعنا بحياة أطول فلا مدعاة أن نكون أكثر حزنًا من فلاح فوجئ بتحول المناخ من جو ربيعي ممتع إلى جو صيفي أو خريفي. فالربيع هو مثل الشباب الذي يحمل وعد الثمار المقبلة. أما سنواتنا الأخيرة فهي فصول للحصاد أو تخزين المحاصيل.

٧١ -وكما سبق أن قلت، فإن النعمة المحددة للشيخوخة هي ذكرى النعم الوفيرة لما حدث من قبل.

وكل ما يتمشَّى مع طبيعة الأمور ينبغي اعتباره حسنًا. فما عساه أن يكون أكثر مواءمة على طريق الحياة الطبيعي لرجل عجوز سوى الموت؟ أما حينما يموت الشباب، تتمرَّد الطبيعة وتناهض هذا المصير. ولَموتُ فتى في شرخ الشباب أشبه بنار أطفأها الطوفان. ولكن حينما يموت شخص عجوز، فهو أشبه بلهبٍ تخفت جذوته تدريجيًا، ويخمد من تلقاء نفسه دون قوة خارجية. وعلى نفس المنوال، يصعب اقتلاع التفاح الأخضر من غصنه، لكنه حينما ينضج يكون مهيَّأً للسقوط على الأرض من تلقاء نفسه. وهكذا فإن الموت يباغت الشباب بقوة، لكنه يواجه المسنِّين في الوقت الصحيح. وإنني لأجد راحة كبيرة في

هـذه الفكـرة، حتـى إنـه كلـما اقـترب المـوت أشـعر بأننـي أشـبه بمسـافر يـرى في نهايـة المطـاف أرض مينـاء الوطـن بعـد رحلـة طويلـة.

٧٢ - بَيْـدَ أن الشـيخوخة ليـس لهـا فـترة محـددة. وينبغـي للمـرء أن يظـل عـلى قيـد الحيـاة مـا دام قـادرًا عـلى الوفـاء بواجباتـه والتزاماتـه دونمـا أي اعتبـار للمـوت. وبهـذه الطريقـة تصبـح الشـيخوخة مفعمـةً بالحيويـة وأكـثر شـجاعة مـن الشـباب. وهـذا يفـسر لمـاذا تمكَّـن صولـون مـن الـرد عـلى بيسيسـتراتوس بمـا ردًّ بـه عليـه حينـما سـأله الطاغيـة عـن السـند الـذي يعتمـد عليـه صولـون في معارضتـه العنيـدة لـه (٧٤). فقـد كان ردُّ صولـون: «شـيخوختي».

إن أفضـل خاتمـة للحيـاة هـي تلـك التـي تـأتي حينـما يكـون العقـل صافيًـا والجسـم سـليمًا، حينـما تُفنـي الطبيعـة نفسـها عمـلًا مـن صنعهـا. فالشـخص الصحيـح القـادر عـلى تفكيـك منـزل أو سـفينة هـو مَـنْ صنَعَهُـمَا. وبالمثـل، فـما أفضـل مـن أن تفنـي الطبيعـة أجمـل مـا أبدعتـه[1]. ومـن الصعوبـة بمـكان هـدم منـزل جديـد، لكـن مـا أسـهل أن يتداعـى المنـزل القديـم.

ولذلـك، لا ينبغـي للمسـنين أن يتشـبثوا بحـرص بـكل قطـرة باقيـة مـن الحيـاة، كـما لا ينبغـي لهـم إهدارهـا بـلا مبرر.

٧٣ - ويقـول فيثاغـورث إنـه لا ينبغـي لنـا أن نـترك نقطـة حراسـتنا في

(١) ينبغـي هنـا، وفي أماكـن أخـرى مـن النـص، ألاّ يغيـب عـن ذهـن القـارئ الزمـن الـذي كتبـت فيـه هـذه الأطروحـة وهـو سـنة ٤٤ قبـل الميـلاد. (المترجـم). كان بيسيسـتراتوس طاغيـة يحكـم أثينـا في منتصـف القـرن السـادس قبـل الميـلاد.

هـذه الحيـاة إلا بأمـر مـن الـرب الـذي يقـود مسـيرتنا[1]. وكتـب الحكيـم صولـون قصيـدة تمنَّـى فيهـا عـلى أصدقائـه أن يحزنـوا عـلى موتـه وأن يرثـوه. وليـس مـن شـك في أنـه أراد أن يبـيِّن كـم كانـوا يقدرونـه. ولكنـي أعتقـد أن إينيـوس كانـت لديـه فكـرة أفضـل حينـما قـال:

«لا أريد أحدًا منكم أن يبكيني،

أو يلقى قصائد الرثاء في جنازتي».

٧٤ - الآن، دعـوني أقـول لكـم إن عمليـة المـوت في حـد ذاتهـا تنطـوي عـلى عواطـف غـير سـارَّة، لكنهـا عواطـف عابـرة، وخاصـة بالنسـبة إلى المسنِّين. أمـا بعـد المـوت، فإمَّـا أن تكـون التجربـة سـارَّة أو غـير ذات شـأن عـلى الإطـلاق. وينبغـي أن نضـع ذلـك نصـب أعيننـا منـذ شـبابنا حتـى لا نخـشى المـوت، إذ أنـه بغـير هـذا الاعتقـاد قـد لا يمكننـا أن ننعـم براحـة البـال. إننـا نـدرك أنـه لا مفـرَّ مـن المـوت الـذي قـد يباغتنـا اليـوم قبـل غـد. ولذلـك؛ فـما دام المـوت يهددنـا كل لحظـة كيـف يمكـن لأي شـخص يخشـاه أن ينعـم بـروح مسـتقرة؟

٧٥ - إننـي لا أريـد أن أبرهـن لكـم عـلى هـذه النقطـة بأمثلـة مطوَّلـة، ولكـن يكفـي أن نتذكـر لوسـيوس بروتـس، الـذي قُتـل وهـو يضحـي بنفسـه فـداء لحريـة بلـده[2]. أو لنتذكـر الأب والابـن ديتـشي، اللذَيْـن

(١) يستخدم شيشرون هنا لفظة الرب deus في صيغة المفرد باعتباره أسمى الكائنات.

(٢)هـو لوسيوس جونيـوس بروتـس الـذي أصبـح مـن أوائـل قناصـل رومـا في ٥٠٩ قبـل الميـلاد بعـد أن عـزل آخـر ملـوك الإتروسـكان عـن رومـا. وقـد قتـل وهـو يحـارب أحـد جيـوش الإتروسـكان الـذي كان يسـعى إلى إعـادة تنصيـب الملـك.

ساقا نفسَيْهما إلى الموت بأقصى سرعة[١]. أو ماركوس أتيليوس، الذي سلَّم نفسه إلى أعدائه وفاءً بوعده لهم فقاموا بتعذيبه[٢]. أو لنتذكر المدعوَّيْن سكيبيو، اللَّذَيْن صدًّا بجسمَيْهما طواعية زحف القرطاجيين على بلدهما[٣]. أو لتتذكَّر أنت يا سكيبيو جدك لوسيوس باولوس، الذي ضحى بحياته أثناء الهزيمة المزرية في معركة كاناي لكي يكفِّر عن حماقة زميله التي أدَّتْ إلى وقوع الهزيمة[٤]. أو لنتذكر ماركوس مارسيلوس، الذي جرى تكريمه في جنازة رسمية أقامها له عدو لدود[٥].

أو لنتذكر فيالقنا التي تحدثتُ عنها في كتابي عن تاريخ روما، والتي كثيرًا ما خاضت المخاطر التي لا أمل في العودة منها. ومن هنا، فهل لأي مُسِنٍّ حكيم أن يخشى الموت الذي لا يعبأ به حتى الجنود الريفيون غير المتعلمين؟

٧٦ - ويبدو لي أنكم تحصلون على كفايتكم من الحياة حينما تستغرقكم كل أنشطتها. إن صغار الصبية يتمتعون بأشياء معينة، ولكن الشباب الراشدين لا يعيرون هذه الأشياء اهتمامهم. وللمرحلة

(١) الأب والابن، ويطلق على كليهما اسم بوبليوس ديسيوس موس. وكان الأب قنصلاً في عام ٣٤٠ قبل الميلاد، وضحى بحياته عمدًا في قتال أعداء روما، وفعل ابنه نفس الشيء في عام ٢٩٥ قبل الميلاد.

(٢)ماركوس أتيليوس ريجولوس (كان قنصلا في ٢٦٧ و ٢٥٦ قبل الميلاد)، ويحكى أنه وقع في أسر القرطاجيين ، لكنه سافر إلى روما للتفاوض بعد أن وعد القائمين على أسره بالعودة حيث عذب حتى الموت.

(٣) هما بوبليوس سكيبيو وجنايوس كورنيليوس سكيبيو كالفوس.

(٤) مات في المعركة لوسيوس أميليوس باولوس مع قرابة خمسين ألفًا من الجنود الرومان في معركة كاناي التي وقعت في ٢١٦ قبل الميلاد بعد أن طوَّقهم حنبعل.

(٥)كان ماركوس كلوديوس مارسيلوس جنرالاً ذائع الصيت، وقنصلاً لخمس مرات، وقد قُتل في إحدى المعارك في عام ٢٠٨ قبل الميلاد ضد حنبعل، وقيل بعد ذلك إنه كرَّمه في جنازة رسمية وأعاد رماد جثته إلى ابنه.

المبكرة مـن البلـوغ مباهجهـا، ولكـن سـنوات منتصـف العمـر لا تحتـاج إلى هـذه المباهـج؛ لأن لهـا مباهجهـا الخاصـة بهـا. وهكـذا؛ فمثلـما تتبـدّد ملـذّات العمـر الأولى؛ تتبـدّد مباهـج الشـيخوخة. وحينـما يحـدث ذلـك تكـون قـد حصلـتَ عـلى كفايتـك مـن الحيـاة ويكـون قـد حـان الوقـت للانتقـال إلى مرحلـة جديـدة.

٧٧ - دعـوني أحدثكـما عـمّا يسـاورني مـن أفـكار بشـأن المـوت؛ لأنني كلـما اقتربـت منـه بـدا لي أننـي أكـثر فهـمًا لـه. إننـي أعتقـد أن أبـاك، يـا سـكيبيو، وأنـت أيضًـا يـا لايليـوس -وكان كلاهـما مـن اللامعـين والمشـهورين والأعـزاء عـلى نفـسي- لا يـزالان عـلى قيـد الحيـاة، وأنهـما يعيشـان حقًّـا الحيـاة الجديـرة باسـمَيْهما. ففـي الوقـت الـذي تشـغلنا فيـه أمورنـا الدنيويـة، فإننـا نقـوم بعمـل شـاق يفرضـه علينـا القـدر. إن الـروح، في واقـع الأمـر، هـي شـأن سـماوي حـلّ علينـا مـن مملكـة السـماء، دفـع بهـا إلى الأرض خلافًـا لطبيعتهـا الإلهيـة الخالـدة. ولكنـي أعتقـد أن الآلهـة المخلّديـن غرسـوا الـروح في الأجسـام البشريـة لجعلهـا كائنـات تُعنـى بـالأرض، وتمعـن الفكـر في النظـام الإلهـي وتحاكيـه فيـما تمارسـه في حياتهـا مـن اعتـدال وانضبـاط.

إننـي لم أخلـص إلى هـذا الاعتقـاد اسـتنادًا إلى حججـي ومنطقـي فقط؛ ولكنـي استرشـدت في الوصـول إليـه بفكـر علمائنـا ومفكرينـا الأكرمين.

٧٨ - لطالمـا سـمعت أن فيثاغـورث وتلامذتـه -وهـم مـن الناحيـة العمليـة مـن أصدقائنـا الريفيـين الذيـن أطلقنـا عليهـم اسـم «الفلاسـفة الطليـان»- لم يشـكّوا أبـدًا في أن أرواحنـا مسـتمدّة مـن معرفـة إلهيـة

شـاملة[1]. وأمامـي أيضـا الحجـج التـي طرحهـا سـقراط في اليـوم الأخـير مـن حياتـه بشـأن خلـود الـروح، ونبـوءة أبوللـو التـي وصفـه فيهـا بأنـه أحكـم شـخص عـلى قيـد الحيـاة.

لمـاذا يتعـيَّن عـليَّ أن أقـول أكـثر مـن ذلـك؟ إننـي عـلى اعتقـاد واقتنـاع بأنـه مـا دام البـشر يتصرَّفـون بسرعـة الضـوء، ويتمتَّعـون بذاكرة مدهشـة عـن المـاضي، ومعـارفَ فيَّاضـة عـمَّا ينتظرهـم مـن أمـور، كـما يمتلكـون طاقـات هائلـة في الفنـون والعلـوم، وقـدرة عـلى الاكتشـاف؛ فـإن طبيعـة أرواحهـم لا يمكـن أن تكـون إلى زوال. وبالإضافـة إلى ذلـك، فـما دامـت أرواح البـشر في حركـة دائبـة؛ فإنـه لا نهايـة لهـذا التحـرُّك الـذي لـن يتخـلَّى عنهـا. وأيضًـا، فـلأن الـروح هـي مـن مـادة وحيـدة ولا يختلـط بهـا أي شيء آخـر؛ فإنهـا غـير قابلـة للانقسـام، وبالتـالي فإنهـا غـير قابلـة للفنـاء أو الهـلاك. وهنـاك حجـة قويـة أخـرى وهـي أن معرفتنـا بكثـير مـن الأشـياء كانـت موجـودة قبـل أن نولـد، وهـو مـا يبرهـن عليـه كيفيـة دراسـة الأطفـال وسرعـة اسـتيعابهم للمـواد الصعبـة كـما لـو كانـوا لا يتعلمونهـا لأول مـرة لكنهـم يسـتعيدون مـا سـبق لهـم معرفتـه. وهـذا هـو مـا يعتقـد بـه أفلاطـون[2].

٧٩ - وفي زينوفـون، نـرى قـورش وهـو عـلى فـراش المـوت يـردِّد مـا يلي[3]:

«أي أبنـائي الأعـزاء، لا تظنُّـوا أننـي حينـما أفارقكـم، لا يعـود لي وجـود،

(١) هاجر فيثاغورث من شاموس في اليونان إلى كروتون في جنوب إيطاليا.

(٢) Phaedo أو «عن النفس» لأفلاطون ٧٢-٧٣.

(٣) موسوعة قورش ٨-٧.

فحتى وأنا معكم، لم تروا روحي، لكنكم تعلمون أنها بداخلي بناء على ما أقوم به من أفعال. ولذلك، فلا يمنعنَّكم عدم الرؤية عن الاعتقاد.

٨٠ - إن أمجاد مشاهير الرجال لم يكن لها لتستمر ما لم يكن قد تبقى جزء من روحهم يحفظ ذكراهم فيما بيننا. ولا يمكن أن يقنعني شيء بأن الروح التي تسكن أجساد البشر تفنى حينما تغادر هذه الأجساد. بل ولا يمكنني الاعتقاد بأن الروح تعجز عن التفكير إن هي غادرت جثمانًا ميِّتًا. وعلى العكس من ذلك؛ فحينما تتحرَّر الروح من أغلال الجسد، فإنها حينئذ فقط تغدو نقية طاهرة وحكيمة حقا. ويمكننا أن نرى ذلك حينما يموت الجسد ويتحلَّل وتعود كل عناصره إلى أصلها. وحدها الروح تظل غير مرئية سواء في وجود الجسد أو غيابه.

٨١ - ولا شيء أشبه بالموت أكثر من النوم، ومع ذلك فإنه أثناء النوم تكشف أرواحنا بوضوح عن طبيعتها الإلهية. فحينما تتحرَّر الروح وتنطلق بلا قيود أثناء النوم، تغدو قادرة على أن ترى بوضوح شديد ما ينبئ به المستقبل. ولعل هذا يعطينا قَبَسًا عمًّا يمكن لأرواحنا أن تقوم به حينما لا تغدو حبيسة أجسادنا.

ولو كان ما قلته صحيحًا؛ إذن لأمكنكم توقيري ووضعي في مصاف الآلهة بعد موتي. ولكن إن كنت مخطئًا وستفنى روحي مع جسدي، فيمكنكم على الأقل تخليد ذكراي، باعتباركم من الرجال الذين يخشون الآلهة التي ترعى وتحكم هذا العالم الجميل».

كانت تلك كلمات قورش لأبنائه وهو على فراش الموت. الآن، دعوني أقول لكم رأيي.

٨٢ - لـن يقنعنـي أحـد، يـا سـكيبيو، أن أبـاك باولـوس، أو جـدَّاكَ باولـوس وأفريكانـوس، أو أيًّا مـن الآبـاء والأعـمام، أو غيرهـم مـن المشـاهير المتعدِّديـن الذيـن لا يمكـن حصرهـم كانـوا سـيحاولون القيـام بمـا قامـوا بـه مـن أعـمال مجيـدة تذكرهـا الأجيـال التاليـة إلَّا إذا كانـوا يعتقـدون أن المسـتقبل يخصهـم.

وحتـى أتفاخـر ببعـض العبـارات عـن نفـسي كـما يفعـل المسـنُّون عـادة، دعـوني أتسـاءل: هـل تعتقـدون أننـي كنـت أكِـدُّ ليـل نهـار في البيـت وفي الحـروب الخارجيـة إن كنـت أعتقـد أن نهايـة هـذه الحيـاة الدنيويـة سـوف تحـدُّ مـن شـهرتي؟ وإذا كان الأمـر كذلـك، لكنـت مـن المؤكَّـد سـعيتُ بصـورة أفضـل إلى أن أعيـش حيـاة هادئـة ومسـالمة بعيـدًا عـن الكـدّ والنـزاع. ولكـن حـدث بشـكلٍ مـا أن روحـي، التـي كانـت تنهـض بنفسـها وعينهـا دائمًـا عـلى المسـتقبل، أدركـت أن الحيـاة الحقيقيـة لـن تبـدأ إلا بعـد مـوتي. ومـا لم يكـن الخلـود إلَّا للـروح؛ فلـماذا سـعى أنبـل رجالنـا بـكل قـوة إلى تحقيـق أمجادهـم؟

٨٣ - ولمـاذا يمـوت أكثرنـا حكمـة في هـدوء بينـما الحمقـى يواجهـون المـوت بالحـزن الشـديد؟ أليسـت هـي روح الحكيـم ذات الرؤيـة الثاقبـة والصافيـة هـي التـي تـرى أنهـا تتهيَّـأ للمُـضِيِّ نحـو عـالم أفضـل، بينـما روح الأحمـق ذات الرؤيـة المعتمـة والحـس البليـد تعجـز عـن أن تـرى إلى أيـن تتجـه؟

إننـي حقًّـا، يـا عزيـزيَّ سـكيبيو ولايليـوس، تحـدوني رغبـة شـديدة في أن أرى أبويكـما مـرة أخـرى؛ هذيـن الرجلـين اللذيـن أكـنُّ لهـما كل

الاحترام والحب. وأشتاق أيضًا آخرين ممن عرفتهم، والكثيرين ممن لم ألتقِ بهم أبدًا، ممّن سمعت وقرأت وكتبت عنهم. وما إن أعد العدة لهذه الرحلة، لن يتأتّى لأحد أبدًا أن يثنيني عنها أو أن يجرني إلى العودة إلى هذه الحياة، كما لو أنني بيلياس[1] Pelias. وواقع الأمر، فلو أن أيًا من الآلهة كان من السماحة بأن يكفل لي أن أضع جانبًا كل سنوات حياتي السابقة وأن أبدأ من جديد حياة أخرى، بدءًا من بكاء المهد؛ لرفضت بشدة. فحيث إنني كدت أن أنتهي من السباق؛ فلماذا أُستدعى لبدئه من جديد من خط البداية؟

٨٤ - ودعوني أتساءل، ما هي مميزات الحياة، أو بالأحرى، ما هي المشاكل التي تخلو منها الحياة؟ هناك بالطبع أمور جيدة تتعلق بالحياة، ولكن مع ذلك يحين الوقت الذي نكون قد حصلنا فيه على كفايتنا منها. ولكن، حسبكما!! لا تدرجاني ضمن الكثيرين من المتشائمين والساخرين الذين يحتقرون الحياة. فإنني لست نادمًا على ما عشته، وأحب أن أفكّر دائمًا في أنني جئت إلى هذه الدنيا لغرض معين لكي أغادرها كما لو أنني أغادر خانًا أو فندقًا، وليس منزلًا. لقد وهبتنا الطبيعة أجسامنا كي نبقى فيها لفترة معينة كضيوف لا أن نعتبرها بيوتنا.

ما أجمل ذلك اليوم الذي سأتهيأ فيه للانضمام إلى هذه الصحبة المقدسة من الأرواح مخلّفًا ورائي عالمًا يسوده الألم والتلوُّث. وسأشرع

---

(١) في الميثولوجيا الإغريقية، زعمت ميديا أنها قادرة على إعادة الحياة إلى بيلياس عن طريق تقطيعه وغلي أجزاء جسمه في مرجل.

في رحلتي ليس فقط لأرى هؤلاء الرجال الذين أشرت إليهم من قبل؛ ولكن أيضًا لأرى ولدي كاتو الذي لم يولد قط مَنْ هو أفضل منه خُلُقًا أو إيمانًا. ومع ذلك، فقد كنت أنا الذي أحرق جثته على محرقة الجثث عوضًا عن أن يحرق هو جثتي، ممّا كان سيبدو مناسبًا. ولكن روحه لم تتوارَ كلية، لكنها دأبت على النظر إلى الوراء منتظرة إيّاي في ذات المكان التي تدرك أنني سأمضي إليه. ويعتقد الناس أنني تحملت فقده بشجاعة. كلّا، فقد كان الألم قاسيًا، لكنني عزّيت نفسي بأن فراقنا لن يكون أبديًّا.

٨٥ - لقد قلت، يا سكيبيو، في بداية مناقشتنا أن للشيخوخة وقعها الخافت عليَّ وهذا ما يثير دهشتك أنت ولايليوس. لقد ذكرت لكما كيف أن الشيخوخة، فضلًا عن أنها يمكن ألّا تشكّل عبئًا على المرء، يمكن أن تكون مصدرًا للإمتاع. ولو كنت خاطئًا في اعتقادي بأن الأرواح مكتوب لها الخلود، فإنني مسرور لهذا الخطأ لأن هذا الاعتقاد، الذي آمل أن يظل يساورني ما حييت، يبعث في قلبي السعادة. ولو أنني، مثلما يقول بعض الفلاسفة محدودي الفكر، لن أشعر بشيء بعد مماتي؛ فإن ذلك، على الأقل، يجعلني لا أشعر بالقلق من أنهم سيكونون هناك كي يسخروا مني بعد موتهم!

وإذا لم نكن مخلّدين، فمن الأفضل -على الأقل- أن نموت في الوقت المناسب. ولأن الطبيعة وضعت حدودًا لكل شيء آخر؛ فإنها وضعت حدودًا لحياتنا. والشيخوخة هي الفصل الأخير في مسرحية الحياة. وحينما نحصل على كفايتنا ويغزونا الضجر، يحين وقت الرحيل.

تلك هي، يا صديقيَّ الشابين، أفكاري عن الشيخوخة. وأتمنى لكما كليكما أن تعيشا ما فيه الكفاية لكي تتحقَّقا منها، ولكي تثبت لكم تجربتكم صدق كلماتي.



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm



تأتي نُدرةُ هذا الكتابِ وفتنتُهُ من أنه أوّلُ كتابٍ في مجاله، وقد مرَّ عليه الآن أكثرُ من ألفَيْ عام. أمّا فتنته الحقيقية؛ فلأنه أوّلُ كتابٍ يَرصُدُ ويُحلّلُ المتعَ الكثيرةَ للشَّيخوخةِ، وهي مُتعٌ لا تَخطُرُ على بال؛ ولهذا ظلّ هذا الكتابُ الصّغيرُ لـ"شيشرون" عن الشَّيخوخةِ مَصدرَ استِمتاعٍ وإلهامٍ كبيرَيْن للقُرّاءِ كافّةً، مُنذُ القرونِ الوُسطى وحتى وقتِنا الحاضر.

قال عنه رائدُ المَقالِ الفرنسيّ "مونتين" إنّه أثارَ شهيّته لبلوغِ سِنِّ الشَّيخوخة، في حين قال "جون آدامز" -وهو من الآباءِ المؤسِّسين للولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّة- إنّه استَمتعَ بإعادةِ قراءةِ هذا الكتابِ مرّاتٍ عديدةً في سنواتِ عُمرِه الأخيرة، وقال "بنيامين فرانكلين" إنّ الكتابَ بَهرَهُ إلى الحدّ الذي جعله يأمُرُ بطباعةِ ترجمتِه في فيلادلفيا في عام ١٧٤٤.

إن عالَمَ اليومِ المفتونَ بالسّعيِ إلى الحفاظِ على الشّبابِ يحتاجُ إلى حكمةِ "شيشرون" أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى.




9 789776 460032